٣

صفات اللّه الخبرية الفعلية
بين
مذاهب السلف والخلف والمشبهة

الأستاذ المساعد / أحمد مصطفى على

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد . كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

مقدمـــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ولد له ، ولا شبيه له هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . سبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا ولا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك بيدك الخلق كله . وبيدك الأمر كله إذا أردت شيئا قلت له كن فيكون .

ونشهد أن سيدنا وحبيبنا وقدوتنا وشفيعنا والشهيد علينا محمدا عبد الله ورسوله . وصفيه من خلقه وحبيبه . بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة وكشف الغمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وعبد ربه حتى أتاه اليقين فجزاه الله خير ما جزى نبيا عن أمته ، واللهم صل على محمد فى الأولين ، وصل على محمد فى الآخرين وصلى على محمد فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الغر الميامين ، وعلى من سار على دربهم وسلك طريقهم إلى يوم الدين ، ونسألك يا رب .. رحمة تهدى بها قلوبنا ، وتشرح بها صدورنا ، وتشفى بها أمراضنا وترفع بها البلاء عنا . كما ونسألك ربنا أن تنزل السكينة فى قلوبنا وأن تقينا شر أنفسنا ، وأن تلهمنا الرشد والصواب ، والصدق والإخلاص ، فى أقوالنا وأفعالنا . كما نسألك ربنا أن ترزقنا العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة اللهم أمين يا رب العالمين .

وبعد .....

إن الصفات الخبرية هى موضع خلاف بين المسلمين فمنهم من نهج منهج التسليم وعدم الخوض فى معرفة كنه هذه الصفات وكانوا يمرون تلك الصفات كما وردت وهم السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

ومنهم الخلف الذين نهجوا منهج التأويل بدعوى تنزيه الله عن مشابهه المخلوقين ومنهم المعطلة وهم نفاة الصفات مثل المعتزلة .

والفريق الثالث وهم المشبهة الذين شبهوا صفات الله عز وجل بصفات خلقه . وهم قد استقوا هذا الفكر من منهج اليهود .

وسوف نبين فى هذا البحث مذهب كل فريق وأدلتهم وأيهم أصوب واحكم وأسلم وهو الجدير بالقبول الذى يجب التمسك به والسير على منهجه .

وإن الإيمان بصفات الله الخبرية هو جزء من الإيمان بالله عز وجل لذلك أردت الكتاب فى هذا الموضوع لأن الإيمان بتلك الصفات دون الخوض فى معرفة حقيقتها يبعث فى النفس الطمأنينة والسكينة لأن معرفة حقيقة الصفات متوقف على معرفة حقيقة الذات ولا سبيل إلى ذلك .

وإن الصفات الخبرية هى التى لا سبيل إلى إثباتها إلا بطريق السمع والخبر عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ ، أى لا سبيل للعقل على إنفراده إلى إثباتها لولا الأخبار المنقولة عن الله عز وجل ، أو عن رسوله ﷺ ، وهى خبرية محضة بيد أن العقل السليم لا يعارض فيها الخبر الصحيح وهذه الصفات تنقسم إلى قسمين :

١ – صفات خبرية فعلية تتجدد حسب مشيئة الله تعالى وهى موضوع حديثنا فى هذا البحث .

٢ – وصفات ذاتية خبرية قائمة بذاته ، وهى قديمة قدم الذات .

والصفات الفعلية تتعلق بها مشيئة الله وقدرته فى كل وقت وآن وتحدث بمشيئة أحاد تلك لصفات من الأفعال ، وإن كان هو لم يزل موصوفاً بها بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثه ، فهو سبحانه لم يزل فعالاً لما يريد ، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأفعاله – عز وجل – تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته وإرادته ، فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش والعلو والمعية والنزول والمجيئ والمحبة والرحمة .

والمتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعز والذل وأنواع التدابير المختلفة.

وسوف نتحدث فى هذا البحث عن الصفات الخبرية الفعلية وقد قسمت هذا البحث إلى سبعة مباحث :

المبحث الأول : صفة الإستواء بين مذاهب السلف والخلف والمشبهة .

المبحث الثانى : صفة الفوقية والعلو .

المبحث الثالث : صفة المعية والقرب .

المبحث الرابع : صفة النزول .

المبحث الخامس : صفة المجيئ .

المبحث السادس : صفة المحبة .

المبحث السابع : صفة الرحمة .

المبحث الأول
صفة الاستواء بين مذاهب السلف والخلف والمشبهة

أولاً : صفة الاستواء عند السلف :

وقبل الحديث عن مذهب السلف يجدر بنا أن نذكر الآيات الواردة فى صفة الاستواء ، وكذلك تعريف الاستواء فى اللغة .

أولا : الآيات التى وردت فى صفة الاستواء :

قد ورد ذكر هذه الصفة فى القرآن الكريم في سبعة آيات على النحو التالى على ترتيب السور .

١ – آية سورة الأعراف : وهو قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }(١) .

٢ – آية سورة يونس قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ }(٢) .

٣ – آية سورة الرعد قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى }(٣) .

٤ – آية سورة طه قوله تعالى { طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }(٤) .

٥ – آية سورة الفرقان قوله تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا }(٥) .

٦ – آية سورة السجدة قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }(٦) .

٧ – آية سورة الحديد قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ }(٧) .

هذه الآيات الكريمات تنص على أن الله تعالى استوى على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض استواء يليق به ولا نعلم منه إلا المعنى العام المفهوم من الوضع إذا هنا صفتان :

أولاً : صفة الاستواء على العرش وهى صفة فعلية خبرية كما دلت عليه الآيات السابقة .

ثانياً : صفة العلو : وهى صفة ذاتية لازمة للذات بمعنى أنه تعالى لم يزل فى علوه ، وهى فى الوقت نفسه عقلية وسمعية أى فهى ثابتة بالعقل والفطرة ، والسمع .

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٣ .

(٢) سورة يونس آية ٣ .

(٣) سورة الرعد آية ٢ .

(٤) سورة طه من آية ١ – ٥ .

(٥) سورة الفرقان آية ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) سورة السجدة آية ٤ – ٥ .

(٧) سورة الحديد آية ٤ .

ثانياً : تعريف الاستواء فى اللغة :

يطلق الاستواء فى اللغة ويراد به عدة معانى منها : يقول الفراء الاستواء فى كلام العرب على وجهين :

أحدهما : أن يستوى الرجل وينتهى شبابه وقوته ، أو يستوى من اعوجاج فهذان وجهان ثم يقول ووجه ثالث أن تقول كان فلان مقبلا على فلانه ثم استوى إلى وعلى فهذا قوله عز وجل (ثم استوى إلى السماء) صعد هذا كقولك للرجل كان قائماً فاستوى قاعدا وكان قاعدا فاستوى قائما ، قال وكلام العرب جائز . وقول ابن عباس صعد إلى السماء أى صعد أمره إلى السماء .

وقال أحمد بن يحيى فى قوله عز وجل (الرحمن على العرش استوى) قال الاستواء الإقبال على الشئ وقال الأخفش : استوى أى علا .

وقال الزجاج فى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) عمد وقصد إلى السماء ، كما تقول : فرغ الأمير من بلد كذا وكذا ثم استوى إلى بلد كذا وكذا ، معناه قصد بالاستواء إليه .

قال داود على الاصبهانى : كنت عند ابن الأعرابى ، فأتاه رجل فقال : ما معنى قوله عز وجل (الرحمن على العرش استوى) ؟ فقال ابن الأعرابى : هو على عرشه كما أخبر ، فقال يا أبا عبد الله إنا معناه استولى ، فقال ابن الأعرابى : ما يدريك ؟ العرب لا تقول استولى على الشئ حتى يكون له مضاد ، فأيهما غلب فقد استولى . أما سمعت قول النابغة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استوى على الأمد[1]

تلك هى معانى الاستواء فى اللغة لا تقتصر على معنى واحد بل لها معان كثيرة منها استواء الرجل بمعنى بلغ أشده وانتهى شبابه وقوته ومنها استواء الرجل من اعوجاج بمعنى اعتدل .

واستوى بمعنى أقبل على الشئ .

واستوى بمعنى صعد .

واستوى بمعنى قصد واستوى بمعنى علا . .

واستوى بمعنى استقر مادياً تقول استوى على ظهر دابته أى استقر[2] .

واستوى بمعنى نضج تقول استوى الطعام بمعنى نضج[3] .

أما الاستواء بمعنى الاستيلاء فهذا لم يرد فى كلام العرب ولم يقل به أحد من أكابر علماء اللغة وسوف يأتى تفصيل تلك المسألة .

مذهب السلف فى صفة الاستواء :

أما السلف[4] فلدقة فقههم فى هذه العقائد فقد سلموا لله ولرسوله — صلوات الله عليه — فيرون بأنه لا يصف الله أعلم من الله ، كما لا يصفه من خلقه أعلم به سبحانه من رسوله .

---

(١) لسان العرب — ابن منظور — جزء ٣ باب السين ص ٢١٦٣ ، ٢١٦٤ ط : دار المعارف .

(٢) مختار الصحاح ص ٣٢٤ ط : دار القلم .

(٣) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ج١ ص ٣٨٤ مطابع الأوفست .

(٤) إن كلمة السلف فى الاصطلاح تطلق على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم على التابعون لهم ثم على تابعى التابعين الذين شملتهم شهادة الرسول لهم وثناؤه عليهم بأنهم (خير الناس) حيث يقول صلى الله عليه وسلم (خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ...) أخرجه البخارى مكرراً فى عدة مواضع ج٥ ص ٢٨٥ وأخرجه مسلم ج٤ ص ١٩٦٤ — ١٩٦٥ عن خبر واحد من الصحابة عن عائشة رضى الله عنها ، وابن مسعود ، وأبو هريرة ، وعمران بن حصين . وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج٤ ص ٤٢٧ .

فوقفوا من نصوص الكتاب والسنة دون محاولة لتجاوزها فلم يخوضوا فيها بالتحريف بدعوى أن ظاهرها غير مراد ، بل أمروا النصوص كما جاءت مكتفين بفهم المعنى العام الذى يدل عليه اللفظ دون تعمق أو تفلسف ، بل اثبتوا لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله الأمين – عليه الصلاة والسلام – دون أن يصل بهم هذا الإثبات إلى حد التشبيه والتجسيم ، بل سلكوا طريقاً وسطاً بين التعطيل والتشبيه والتجسيم ، وهو طريق السلامة كما ترى ، وكما سيتضح عندما نأخذ فى التفصيل .

إذ أن مذهب السلف يقوم على القطع بأن الله منزه عن المكان والجهة وترك التأويل فى الصفات وتفويض معناها إلى الله عز وجل ، مع اعتقاد أن الله استوى على العرش استواء يليق به لا يعلمه إلا هو مع الجزم بأن الله تعالى ليس حالاً فى العرش ولا جالساً عليه .

يقول الإمام أبو حنيفة " لا ينبغى لأحد أن ينطق فى الله بشئ من ذاته ولكن يصفه سبحانه بما وصف به نفسه ولا يقول فيه برأيه شيئاً تبارك الله وتعالى رب العالمين "[٢] .

وقال فى كتاب الوصية " وتقر بأن الله تعالى على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة للاستقرار عليه وهو حافظ للعرش وغير العرش من غير احتياج فلو كان محتاجاً لما قدر على إيجاد العالم وتدبيره كالمخلوقين ولو كان محتاجاً إلى الجلوس والقرار فقبل خلق العرش أين كان ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً "[٣] .

فقد بين هذا الإمام أن الله – عز وجل – منزه عن الجلوس والقرار والمكان وقد خلق الكل من غير احتياج إليه .

وقال الإمام مالك وشيخه ربيعه وغيرهما فى الاستواء : " الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة "[٤] .

فقوله " الاستواء معلوم " أى معلوم المعنى فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن وله معان بحسب إطلاقه . وقوله " الكيف مجهول لنا ، وذلك لوجوه ثلاثة :

الأول : أن الله أخبرنا أنه استوى على عرشه ولم يخبرنا كيف استوى .

الثانى : أن العلم بكيفية الصفة فرع عن العلم بكيفية الموصوف وهو الذات فإذا كنا لا نعلم كيفية ذات الله فكذلك لا نعلم كيفية صفاته .

الثالث : أن الشئ لا تعلم كيفيته إلا بمشاهدته ، أو مشاهدة نظيره ، أو الخبر الصادق عنه ، وكل ذلك منتف فى استواء الله – عز وجل – على عرشه وهذا يدل على أن السلف يثبتون للاستواء كيفية لكنها مجهولة لنا .

وقوله : " والسؤال عنه بدعه " أى عن كيفيته بدعه ، لأن السؤال عنها لم يعرف فى عهد النبى ﷺ ولا خلفائه الراشدين وهو من الأمور الدينية فكان إيراده بدعة[٤] .

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الاستواء فقال : " استوى كما اخبر لا كما يخطر للبشر .

---

(١) الفقه الأكبر للإمام أبى حنيفة ص ١٦ ط : الحلبى .

(٢) شرح متن الفقه الأكبر للعلامة ملا على القارى ص ١٣ ، ١٤ .

(٣) الأسماء والصفات للإمام البيهقى ص ٥١٥ وانظر " اعتقادات أهل السنة – اللا لكلئى – ص ٣٩٨٣ رقم ٦٦٤ ، ٥٦٦ وانظر حلية الأولياء – أبو نعيم الاصفهانى ج٦ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ط : بيروت .

(٤) تقريب التدمرية – الشيخ محمد بن صالح بن عتيمين ص ٤٠ ط : مكتبة السنه .

وسئل الإمام الشافعى عن الاستواء فقال : " آمنت بلا تشبيه ، وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسى فى الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك "[١].

وقال " ابن خزيمة "[٢] فى الاستواء " نحن نؤمن بخبر الله جل وعلا أن خالقنا مستوى على عرشه لا نبدل كلام الله ولا نقول قولا غير الذى قيل لنا كما قالت المعطلة والجهمية أنه استولى على عرشه لا استوى فبدلوا قولا غير الذى قيل لهم كفعل اليهود لما أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حنطة مخالفين لأمر الله جل وعلا كذلك الجهمية[٣] .

وقال : الأوزاعى[٤] " فى الاستواء : كنا والتابعون متوافرون نقول : إن الله تعالى ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته جلا وعلا "[٥] .

وهذا التصريح من الأوزاعى يعنى الإجماع ، إجماع التابعين المبنى على اجتماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب وصريح السنة .

وذكر الأوزاعى هذا الإجماع عندما ظهر جهم بن صفوان منكرا كون الله تعالى فوق عرشه ، ونافيا لجميع صفات الرب تعالى ، ذكر الإمام هذا الإجماع ليعرف الناس أن ما نادى به جهم بن صفوان مخالف لما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين .

تلك هو مذهب السلف — رضوان الله عليهم أجمعين — فهم يؤمنون بتلك الصفة دون تشبيه أو تعطيل ، أو تمثيل ، بل يمرون تلك الصفة كما جاءت بلا كيف . وأنها تجرى على ظاهرها من غير تأويل .

ولكن الإمام ابن حزم[٦] " وهو من يتكلم باسم السلف " له رأى آخر فى معنى الاستواء وهو " أنه فعل فعله فى العرش وهو انتهاء خلقه إليه ، فليس بعد العرش شئ ، وأنه ليس وراء العرش خلق وأنه نهاية جرم المخلوقات الذى ليس خلفه خلاء ولا ملاء — ويقول — ومن أنكر أن يكون للعالم نهاية من المساحة والزمان والمكان أو من جرمة فقد لحق بقول الدهرية وفارق الإسلام .

ويستشد ابن حزم على صحة رأيه بقوله : { الاستواء فى اللغة يقع على الانتهاء قال تعالى { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا }[٧] .

أى فلما انتهى إلى القوة والخير . وقال تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }[٨] . أى أن خلقه وفعله انتهى إلى السماء بعد أن رتب الأرض على ما هى عليه[٩] .

هكذا يرى ابن حزم أن الاستواء هو فعل فعله المولى عز وجل فى العرش وهو انتهاء خلقه وهذا الرأى وإن كان ابن حزم يقول عنه " هو الحق وبه نقول[١٠] " إلا أنه من الأفضل أن نؤمن بهذه الصفة على ظاهرها والله أعلم بمرادها ومعناها أن تلاوتها تفسيرها . هذا هو مذهب السلف فى تعريف صفة الاستواء .

---

(١) الفواكه الدوانى على رسالة ابن يزيد القروانى والتابعين .

(٢) ابن خزيمة (سلفى العقيدة) ولد سنة ٢٢٣ هجرية بنيسابور وتوفى سنة ٣١١ هجرية .

(٣) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب جلا وعلا ت محمد ابن إسحاق ابن خزيمة ص ١٠١ .

(٤) الأوزاعى من التابعين بالشام وتوفى سنة ١٧٥هـ وهو أحد الأئمة الأربعة فى عصره وهم مالك بن أنس بالحجاز توفى سنة ١٧٩هـ؟ والليث بن سعد بمصر توفى سنة ١٧٥هـ والثورى بالعراق توفى سنة ١٦١هـ .

(٥) الأسماء والصفات للبيهقى ص ٥١٥ ط : دار الكتب العلمية بيروت .

(٦) هو الإمام : أبى محمد على ابن أحمد المعروف بابن حزم الظاهرى توفى ٤٥٦هـ .

(٧) سورة القصص آية ١٤ .

(٨) سورة فصلت آية ١١ .

(٩) الفصل فى الملل والأهواء والنحل — ابن حزم — ج٢ ص ٢٩٠ — ٢٩١ — طبعة عكاظ .

(١٠) الفصل فى الملل والأهواء والنحل — ابن حزم — ج٢ ص ٢٩٠ ط عكاظ .

وأقوال السلف كثيرة جداً حول هذا الموضوع وكلها تدور حول هذا المفهوم من أن الله مستوى على عرشه بائن عن خلقه بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه .

مذهب الخلف فى صفة الاستواء :

أما مذهب الخلف[١] فى تعريف صفة الاستواء فهو يختلف عن مذهب السلف حيث أن المتأخرين من الأشعرية والمعتزلة قالوا بتأويل تلك الصفة وإخراجها عن ظاهرها .

أما المتقدمون من الأشعرية كأبى الحسن الأشعرى[٢] ، وأبى بكر الباقلانى وغيرهما كانوا يثبتون هذه الصفات ويتحرجون من تأويلها بما يقتضى نفيها عن الله عز وجل[٣] .

فقد أثبت الأشعرى الاستواء صفة الله تعالى ورد بها الخبر ، ولكنه نفى الكيفية والمجاورة والمماسة[٤] وتلك هو نفس مذهب أهل السلف . وأول من اشتهر عنه نفى الصفات من الأشاعرة هو إمام الحرمي ، الجوينى ، وتبعه على ذلك جميع متأخرى الأشاعرة تقريباً مثل الغزالى والرازى والآمدى وغيرهم[٥] .

حيث يرى الجوينى أن الاستواء فى الآية ليس مراداً به ظاهرة ، بل يجب تأويله لأن الله تعالى منزه عن الاحتياج والمكان ، فقد حمل الاستواء على معنى القهر والغلبة من قول العرب .

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ولا دم مهراق[٦]

وعلى نفس المنوال سار حجة الإسلام الإمام الغزالى ولم يخرج عن الإطار الذى رسمه إمام الحرمين وكل ما أورده أنه قصر التأويل على العلماء أم العامة فقد أوجب عليهم الإيمان دون الدخول فى تفصيلات فيقول فى كتابه (الاقتصاد فى الاعتقاد) أن الناس بإزاء هذه الظواهر فريقان عوام وعلماء ويرى أن اللائق بعوام الخلف أن لا يخاض بهم فى هذه التأويلات بل ينزع من عقائدهم كل ما يوجب التشبيه ويدل على الحدوث ، وإذا سألوا عن معانى هذه الآيات زجروا عنها لأن عقولهم لا تتسع لفهما ، وأما العلماء فاللائق بهم معرفة ذلك وتفهمه[٧] .

وممن سار على نفس المنوال الإمام الرازى حيث ذكر عند تفسيره سورة طه أن الاستواء بمعنى الاستيلاء[٨] .

هذا هو رأى متأخرى الأشاعرة فى صفة الاستواء فهم قد أولوا صفة الاستواء بالاستيلاء ، إلا أن الكثير منهم رجع فى آخر حياته عن ذلك التأويل وتبع مذهب السلف ومن ذلك " إمام الحرمين " فقد ذهب فى كتابه " الإرشاد إلى التأويل " ولكنه فى كتابه " الرسالة النظامية " رجع عن ذلك وحرم التأول وبين إجماع السلف على تحريمه[٩] .

---

(١) المراد بالخلف هم علماء الكلام على اختلاف مناهجهم ومشاربهم .

(٢) أبو الحسن الأشعرى ينسب إليه مذهب الأشعرية وقد كان معتزلياً وأقام عليه ٤٠ سنة وكان إماماً للمعتزله ولكنه رجع عن مذهب المعتزلة إلى مذهب السلف انظر البداية والنهاية ج١١ ص ١٨٧ ط : بيروت ٢ .

(٣) انظر : ابن تيميه السلفى – محمد خليل هراس ص ١٤٦ ط : مكتبة الصحابة .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة – الأشعرى ص ٣٣ ط : بيروت دار ابن زيدون .

(٥) ابن تيميه السلفى ص ١٤٨ .

(٦) لمع الأدلة – الجوينى ص ١٨٧ .

(٧) الاقتصاد فى الاعتقاد – الغزالى ص ٣٦ مطبعة الخانجى ١٣٧٠هـ .

(٨) مفاتيح الغيب ج٦ ص ٤ ، ٥ ط : المطبعة الخيرية ١٣٠٨هـ .

(٩) ابن تيميه السلفى د / محمد خليل هراس ص ١٤٨ مكتبة الصحابة بطنطا .

وكذلك الإمام الغزالى مدح مذهب السلف وبين أنه الحق فهو فى كتابه " إلجام العوام عن علم الكلام " أشاد فيه بمذهب السلف وتحدث عن حقيقته مبيناً أنه الحق ومن خالف السلف فهو مبتدع لأنه مذهب الصحابة والتابعين ، وقد أخذ من الرسول ﷺ مباشرة ، فكل خير فى إتباعهم ، وكل شر فى الابتداع بعدهم .

وللإمام الغزالى رسالة سماها " بغية المريد فى رسائل التوحيد[1] وقد نص فى هذه الرسالة على نفى شبهة خطرة وهى : ما قد يتوهمه بعض الناس من أن إثبات الاستواء على العرش يلزم منه أن العرش يحمل الرب سبحان الله وتعالى عما زعموا علواً كبيراً ، وهى من جملة الأخطاء التى يتورط فيها أولئك الذين لا يكادون يفهمون صفات الله سبحانه وتعالى إلا كما يفهمون صفات خلقه من التحديد والإحاطة بالحقائق ، وفى نفى هذا الوهم يقول الغزالى " وليس العرش بحامل له سبحانه ، بل العرش وحملته بحملهم لطفه وقدرته ، وأنه تقدس عن الحاجة إلى مكان قبل خلق العرش وبعد خلقه ، وأنه يتصف بالصفات التى كان عليها فى الأزل[2] .

يفهم من هذا الكلام أن الغزالى يرى أن الاستواء صفة الله تعالى ورد بها الخبر ويجب إبقاء تلك الصفة من غير تأويل . وهذا هو مذهب السلف .

أما المعتزلة ومن أجاز التأويل من الأشاعرة فقد منعوا حمل الاستواء على أنه صفة من صفات الله تعالى . كما منعوا حمله على ظاهره ، وقالوا لابد من صرف لفظ الاستواء عن ظاهره ، وحمله على معنى يحتمله اللفظ ، ويليق بجلال الله تعالى ، ويمكن حمل الاستواء فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) على الاستيلاء والقدرة والغلبة والقهر . إذ أن هذه المعانى سائغة فى اللغة .

وقد وردت فى اللغة نثراً وشعر ، فإنه يقال : استوى الملك على الإقليم إذا احتوى على مقاليد الملك .

وقال الشاعر :

فلما علونا واستوينا عليهم ... تركناهم صرعى لنسر وكاسر

وقال الآخر :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

فالحمد لله المهيمن الخلاق[3] .

وقد قال أبو الحسن الأشعرى فى كتابه " الإبانة عن أصول الديانة " أنه قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن قول الله عز وجل " الرحمن على العرش استوى " أنه استولى وملك وقهر ، وإن الله عز وجل فى كل مكان ، وجحدوا أن يكون الله عز وجل على عرشه ، كما قال أهل الحق وذهبوا فى الاستواء إلى القدرة . وقد رد عليهم الأشعرى بقوله : لو كان هذا كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض فالله سبحانه قادر عليها وعلى الحشوش وعلى كل ما فى العالم فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهو عز وجل مستوياً على الأشياء كلها كان مستوياً على العرش وعلى الأرض وعلى الحشوش والأفراد ، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول أن الله عز وجل مستوى على الحشوش والأخلية لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذى هو عام فى الأشياء كلها ووجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها[4] .

---

(١) هى جملة رسائل مفيدة وجليلة تحدث فيها عن تنزيه الخالق وأنه لا بشبهة شئ ولا يشبه شئ وكل ما خطر بالبال فالله منزه عنه .

(٢) بغية المريد فى رسائل التوحيد – الغزالى المطبعة المحمودية بمصر .

(٣) الأصول الخمسة القاضى عبد الجبار ص ٢٢٦ ، وانظر مقالات الإسلاميين الأشعرى ج١ ص ٢٣٧ ط : مكتبة النهضة الشاملة وانظر الشامل إمام الحرمين ص ٥٥٣ .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة – الأشعرى – ص ٣٤ ط دار بن زيدون .

وهذا هو معنى الاستواء عند المعتزلة والجهمية والحرورية ومن أجاز التأويل من الأشاعرة فهو يرون أن الاستواء ليس صفة لله عز وجل وإنما يجب تأويله وهو بمعنى استولى وملك وقهر ، ولكن هذا الرأى مخالف لإجماع السلف وقد بينا فيما مضى مذهب السلف فى ذلك .

وأيضاً هذا الرأى مخالف لأهل اللغة : إذ أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب . قال ابن الأعرابى[١] وقد سئل : هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى ؟ فقال : لا تعرف العرب ذلك . وقال العرب لا تقول استولى على الشئ حتى يكون له مضاد فأيهما غلب فقد استولى ، والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر[٢] .

وإن لفظ الاستواء فى كلام العرب الذى خاطبنا الله تعالى بلغتهم وأنزل بها كلامه (نوعان) مطلق ومقيد ، فالمطلق ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى }[٣] .

وهذا معناه كمل وتم ، يقال استوى النبات ، واستوى الطعام ، وأما المقيد فثلاثة أضرب (أحدها) مقيد بإلى كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء } واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة ، وقد ذكر سبحانه هذا المعدى بإلى فى موضعين قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ }[٤] والثانى قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }[٥] وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف . والثانى مقيد بعلى كقوله تعالى { لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ }[٦] { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ }[٧] وقوله تعالى { فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ }[٨] وهذا أيضا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة . الثالث المقرون بواو المعيه التى تعدى الفعل إلى المفعول معه نحو استوى الماء والخشبة بمعنى ساواها . وهى معانى الاستواء المعقولة فى كلامهم ، ليس فيها معنى استولى البتة ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخروا النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية[٩] .

ثم أن الشعر الذى استدلوا به :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

هذا البيت ليس من شعر العرب وهو محرف وإنما هو هكذا : بشر قد استولى على العراق . هكذا لو كان معروفا من قائل معروف ، فكيف وهو غير معروف فى شئ من دواوين العرب وأشعارهم التى رجع إليها .

وأنه لو صح هذا البيت وصح أنه غير محرف لم يكن فيه حجة بل هو حجة عليهم ، وهو على حقيقة الاستواء فإن بشرا هذا كان أخا عبد الملك بن مروان ، وكان أميرا على العراق فاستوى على سريرها كما هو عادة الملك ونوابها أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة فى اللغة .

---

(١) ابن الأعرابى هو من أكابر أئمة اللغة الذين يعتد برأيهم .

(٢) انظر لسان العرب – ابن منظور ج٣ ص ٢١٦٤ ط : دار المعارف ، وانظر الصواعق المرسلة – ابن قيم الجوزيه ص ٣٨١ ط : مكتبة المتنبى وانظر الأسماء والصفات – البيهقى ص ٥٢٣ ط : دار الكتب العلمية .

(٣) سورة القصص آية ١٤ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٩ .

(٥) سورة فصلت آية ١١ .

(٦) الزخرف آية ١٣ .

(٧) هود آية ٤٤ .

(٨) الفتح آية ٢٩ .

(٩) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة – ابن قيم الجوزيه ص ٣٨٠ ط : مكتبة المتنبى .

لأنه لو كان المراد بالبيت استيلاء القهر والملك لكان المستوى على العراق عبد الملك بن مروان لا أخاه بشر ، فإن بشرا لم يكن ينازع أخاه الملك ولم يكن ملكا مثله ، وإنما كان نائبا له عليها ووليا من جهته فالمستولى عليها هو عبد الملك لا بشر ، بخلاف الاستواء الحقيقى وهو الاستقراء فيها والجلوس على سريرها فإن نواب الملوك تفعل هذا بإن الملوك[١] .

ثم أنه لو كان الاستواء بمعنى الملك القهر لجاز أن يقال استوى على ابن آدم وعلى الجبل وعلى الشمس والقمر وعلى البحر والشجر والدواب وهذا لا يطلقه مسلم[٢] .

ثم إن الإجماع منعقد على أن الله سبحانه استوى على عرشه حقيقة لا مجازا ، قال أبو عمر الطلمنكى أحد أئمة المالكية ، وهو شيخ أبى عمر بن عبد البر فى كتابة الكبير الذى سماه (الوصول إلى معرفة الأصول) فذكر فيه من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وأقوال مالك وأئمة أصحابه ما إذا وقف عليه الواقف ، علم حقيقة مذهب السلف ، وقال فى هذا الكتاب : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز[٣] .

إذ أن ظاهر الاستواء وحقيقته هو العلو والارتفاع كما نص عليه جميع أهل اللغة وأهل التفسير المقبول ، وقد صرح المنكرون للاستواء بأن الله لا يجوز أن يتكلم بشئ ويعنى به خلاف ظاهره كما قال صاحب المحصول وغيره وهذا لفظه " لا يجوز أن يتكلم الله بشئ ويعنى به خلاف ظاهره " والخلاف مع المرجئة ، ثم احتج على ذلك بأنه عبث وعلى الله محال ، والذى احتج به على المرجئة — يحتج به عليه أهل السنة بعينه ، وهذا الرأى قاله هو الحق وما إنفق عليه العقلاء ، فلا يجوز أن يتكلم الله بشئ ويريد به خلاف ظاهره إلا وفى السياق ما يدل على ذلك بخلاف المجمل فإنه بحق عندهم أن يتكلم به لأنه لم يرد به خلاف ظاهره ، الفرق بينهما إيقاع الأول فى اللبس واعتقاد الخطأ بخلاف المجمل ، فكيف إذا كان مع ظاهره من القرآن ما ينفى إرادة غيره ، فدعوة إرادة غير الظاهر حينئذ ممتنع من الوجهين .

ثم إن حقيقة المجاز أنه ليس فوق السموات رب ، ولا على العرش إلا العدم المحض ، وليس هناك من ترفع إليه الأيدى ، ويصعد إليه الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، وينزل الوحى من عنده ، ولا عرج برسوله إليه حقيقة ، ولا رفع المسيح إلى حقيقه ، ولا يجوز أن يشير إليه أحدنا بأصبعه إلى فوق كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز أن يقال أين هو كما قاله النبى ﷺ.. فهذا حقيقة المجاز وحاصله ، ومعلوم أن هذا أشد مناقضة لما جاءت به الرسل منه للمعقول الصريح ، فيكون من أبطل الباطل[٤] .

تلك هو مذهب الخلف فى صفة الاستواء وقد إتضح مما قدمنا أنهم يذهبون إلى تعطيل تلك الصفة وتأويلها وإخراجها عن معناها الحقيقى إلى معنى مجازى .

ولكن يقال لأهل التعطيل من المعتزلة وغيرهم : ألستم تقولون بوجود ذات لا تشبه الذوات، فكذلك قولوا بصفات لا تشبه الصفات .

مثال ذلك : إذا قال : إن الله استوى على العرش فكيف استواؤه ؟!!

فيقال له : القول فى الصفات كالقول فى الذات فأخبرنا كيف ذاته ؟!!

فإن قال لا أعلم كيفية ذاته .

قيل له ونحن لا نعلم كيفية استوائه .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة — ابن قيم الجوزيه ص ٣٩١ .

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة — ابن قيم الجوزيه ص ٣٩١ .

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة — ابن قيم الجوزيه ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

وحينئذ يلزم أن يقر باستواء حقيقى غير مماثل لاستواء المخلوقين ولا معلوم الكيفية ، كما أقر بذات حقيقة غير مماثلة لذوات المخلوقين ولا معلومة الكيفية[١] وهذا هو الصواب الذى نؤمن له ونقول به .

وبعد أن استعرضنا منهج الفريقين من السلف والخلف فى صفة الاستواء وقد اتضح من خلال ما قدمنا أن مذهب السلف يقوم على التفويض وعدم القطع بمراد تلك الصفة ، وأن مذهب الخلف يقوم على التأويل نقول أنه فى مواجهة ذلك الاتجاه التنزيهى نشأ اتجاه أخر تطرق إليه التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة والمكان وهذا هو موضوع حديثنا .

مذهب المشبهة والمجسمة فى صفة الاستواء :

المشبهة والمجسمة هم فرقة من غلاة الشيعة تأثروا بالفكر اليهودى فى التشبيه والتجسيم ، وقد أخذت هذه الفرقة بظواهر ألفاظ الصفات ، فنسبت إلى الله وجها كوجوه الخلق ويدا أو أيادى كأيدهم وضحكا كضحكهم ، وهكذا حتى فرضوا الإله شيخا وبعهم فرضه شابا[٢] .

إن التشبيه الذى ضل به كثيرا من الناس على نوعين : أحدهما تشبيه المخلوق بالخالق . والثانى تشبيه الخالق بالمخلوق . أما تشبيه المخلوق بالخالق فمعناه إثبات شئ للمخلوق مما يختص به الخالق من الأفعال ، والحقوق والصفات . وهذا القسم ليس هو موضع حديثنا .

أما تشبيه الخالق بالمخلوق فمعناه أن يثبت لله تعالى فى ذاته أو صفاته من الخصائص مثل ما يثبت للمخلوق من ذلك . كقول القائل : إن يدى الله مثل أيدى المخلوقين واستواء على عرشه كاستوائهم ونحو ذلك[٣] .

وقد جاء فى المعجم الفلسفى : ان التشبيه هو تصور الله فى ذاته أو فى صفاته على مثال الإنسان ويقابله التنزيه[٤] .

ويقول الدكتور البهى : إن التشبيه معناه تقريب المعبود من الإنسان وتوثيق أواصر الشبه بينهما ، فما يتصوره الإنسان فى دائرته يحمله كذلك على معبوده وما يشرح للإنسان فى البيئة الإنسانية يعطى على نحوه للإله[٥] .

وهكذا فإن تشبيه الإله بالمخلوق يجعله مضاهياً له فى هيئته وتكوينه وطبعا المخلوق جسم فيكون الإله جسم[٦] . ويوصف بالجسمية ولأن المخلوق له حيز لجسمانيته فهم — أى المشبه — يجسمون الله بشكل معين ويجعلون له مكانا محددا ، فالتجسيم إذن ناتج عن التشبيه وقد يستعملان فى صعيد واحد ويؤديان إلى معنى مشتركا[٧] .

---

(١) تقريب التدمرية — الشيخ محمد بن صالح العتيمين — ص ٣٩ ط مكتبة السنة بالقاهرة .

(٢) الجواهر الكرمية — طاهر الجزائرى — ٣٧ ط : عالم الكتب بيروت .

(٣) رسائل فى العقيدة — محمد صالح الثيمين ص ٥٥ ، ٥٦ ط : ٢ الرياض سنة ١٩٨٣م .

(٤) المعجم الفلسفة د / جميل صليبا ج١ ص ٢٧٥ دار الكتاب اللبنانى بيروت .

(٥) الجانب الإلهى من التفكير الفلسفى د / محمد البهى ص ٦٣ ط : مكتبة وهبه .

(٦) الجسم : هو جوهر قابل للأبعاد الثلاثة — الطول العرض العمق — وقيل الجسم هو المركب المؤلف من الجوهر هو المركب المؤلف من الجوهر . انظر التعريفات للجرجانى ص ٧٦ ط : بيروت .

(٧) غلاة الشيعة — د / فتحى محمد الزغبى ص ٤١٠ ط : دار المعارف .

وهشام بن عبد الحكم[١] هو أول من قال بالتجسيم من الغلاة وقد ذكر ذلك الدكتور النشار حيث قال : إن مؤرخى الفكر الإسلامى القدامى شيعة وسنة ومعتزلة أجمعوا على أن هشام بن عبد الحكم هو أول من قال عن الله جسم وأن مقالة التجسيم فى الإسلام إنما تنسب إليه ، فهو أول من أدخلها أو ابتدعها ، كما نسب إليه التشبيه أيضاً[٢].

وقال " ابن تيميه " إن أول من قال فى الإسلام إن القديم جسم هو هشام بن الحكم[٣] . وكما سبق القول إن التجسيم ناشئ عن التشبيه ، وأن التشبيه والتجسيم يؤديان إلى معنى مشتركا .

وقال " الملطى " إن هشام بن الحكم انتحل فى التوحيد التشبيه يطلب بذلك هدم أركان الإسلام ، فهدم ركن التوحيد وساوى بين الخالق المخلوق[٤] .

وقد أفرط ابن الحكم فى التشبيه والتجسيم حتى زعم أن معبودة جسم ، ذو حد ونهاية ، وأنه طويل عريض عميق ، وأن طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه ، ولم يثبت طولا غير الطول ولا عرضا غير العرض ، وقال ليس ذهابه فى جهة الطول أزيد على ذهابه فى جهة العرض[٥] وقال إن بين معبوده وبين الأجسام تشابها ما بوجه من الوجوه ولولا ذلك ما دلت عليه[٦] .

وذكر أبو الهذيل العلاف[٧] أن هشام بن عبد الحكم قال : إن ربه جسم ذاهب جاء ، فيتحرك تارة ويسكن أخرى ، ويقعد مرة ويقوم أخرى وأنه طويل عريض عميق ، لأن ما لم يكن كذلك دخل فى حد التلاشى قال : فقلت له : فأيهما أعظم إلهك أو هذا الجبل ؟ وأو مأت إلى أبى قبيس[٨] فقال هذا الجبل يوفى عليه أى هو أعظم منه[٩].

زعم أيضاً أن إلهه ذو لون وطعم ورائحة ومجسة ، وأن لونه هو طعمه ، وطعمه هو رائحته ، ورائحته هو مجسته[١٠] المجسة بفتح الميم هو الموضع الذى يجسه الطبيب ، كأنهم يريدون بها النبض[١١] وقال هشام فى معبوده أيضاً . هو سبعة أشبار بشبر نفسه كأنه قاسه على الإنسان ، لأن كل إنسان فى الغالب سبعة أشبار بشبر نفسه[١٢] .

---

(١) قد جاء فى هامش كتاب شرح الأصول الخمسة ص ١٨٣ – إن هشام بن الحكم توفى سنة ٢٧٩هـ . ولكن جاء فى كتاب الفكر الإسلامى د / عبد القادر محمود ص ٤٨ إن هشام ولد سنة ١١٣هـ وتوفى سنة ٢٠٠هـ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د / على ساعى النشار ج٢ ص ٢٢٤ دار المعارف .

(٣) الفرقان بين الحق والباطل – ابن تيميه ص ١٠٥ مطبعة الإمام بمصر .

(٤) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع – المالطى ص ٢٤ ، ٢٥ ط : بيروت .

(٥) الفرق بين الفرق – البغدادى ص ٦٥ تحقيق محمد عثمان الخشب ط : ابن سينا .

(٦) الملل والنحل – الشهرستانى – تحقيق محمد سيد كيلانى ط : دار بيروت .

(٧) أبو الهزيل : هو محمد بن الهزيل بن عبد الله بن مكحول العبدى المعروف بالعلاف المتكلم ، كان شيخ البصريين فى الاعتزال ومن أكابر علماءهم ، ولد سنة ١٣١هـ وقيل ١٣٤هـ وتوفى سنة ٢٣٥هـ وقيل ٢٢٧ وقيل ٢٢٦ . انظر وفيات الأعيان – ابن خلكان – تحقيق محمد محى الدين ج٣ ص ٣٩٦ رقم الترجمة ٥٧٨ ط : مكتبة نهضة مصر ١٩٤٨م .

(٨) أبو قبيس بضم القاف وفتح الباء جبل مشرف على مسجد مكة .

(٩) مقالات الإسلاميين – الأشعرى ج١ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ط : مكتبة النهضة المصرية .

(١٠) الفرق بين الفرق – البغدادى ص ٦٥ ط : ابن سينا .

(١١) شرح المواقف للإيجى المجلد الثانى ص ٤٨٥ ط : دار السعادة بمصر .

(١٢) الفرق بين الفرق ص ٦٥ وانظر تلبيس إبليس – ابن الجوزى ص ٨٤ .

وقال هذا الملعون فى إلهه أيضاً : أنه قد كان لا فى مكان ثم حدث بان تحرك البارى ، فحدث المكان بحركته فيه ، وزعم أن المكان هو عرشه[١] وقال : هو متناه بالذات غير متناه بالقدرة ، وأنه مماس لعرشه لا يفضل منه شئ عن العرش ، ولا يفضل من العرش شئ عنه[٢] .

وممن قال بالتشبيه والتجسيم من الغلاة اليونسيه : أتباع يونس بن عبد الله القمى[٣] حيث زعم أن الملائكة تحمل العرش والعرش يحمل الرب تعالى[٤] أى أن حملة العرش يحملون إله العرش وهو أقوى منهم[٥] أى من الملائكة مع كونه محمولا لهم[٦] .

وممن قال بالتجسيم أيضا الكرامية اتباع " محمد بن كرام "[٧] فقد دعا أتباعه إلى تجسيم معبوده ، وزعم أن له حد ونهاية من تحته ، والجهة التى منها يلاقى عرشه[٨] وقال هو مماس الصفحة العليا من العرش ويجوز عليه الحركة والانتقال ، وتبدل الجهات ونص على ان معبوده على العرش وعلى أنه بجهة فوق ذاتا ، واطلق عليه اسم الجوهر فقال إنه أحدى الذات ، أحدى الجوهر ، وأنه مماس للعرش من الصفحة العليا ، وجوز الانتقال والتحول والنزول ، ومنهم من قال إنه على بعض أجزاء العرش وقال بعضهم أمتلأ العرش به ، وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق ، وأنه محاذ للعرش[٩] .

وسأل بعض أتباع الكرامية فى مجلس " محمود بن سبكتكين "[١٠] سلطان زمانه رحمه الله ، إمام زمانه أبا إسحاق الاسفراينة — رحمه الله — عن هذه المسألة فقال : هل يجوز أن يقال الله سبحانه وتعالى على العرش ، وأن العرش مكانه ؟ فقال : لا وأخرج يديه ووضع إحدى كفيه على الأخرى وقل كون الشئ على الشئ يكون هكذا ، ثم لا يخلو ان يكون مثله ، أو أكبر منه أو أصغر منه ، فلابد من مخصوص خصه ، وكل مخصوص متناهى ، والمتناهى لا يكون إلها ، لأنه يقتضى مخصصا ومنتهى وذلك علم الحدوث ، فما يمكنهم أن يجيبوا عنه فأغروا بهم رعاعهم حتى دفعهم عنه السلطان بنفسه فلما دخل عليه وزيره أبو العباس[١١] الاسفراينى قال له محمود كجابودى ، ابن هم

---

(١) مقالات الإسلاميين — أبو الحسن الأشعرى ج١ ص ١٠٦ ط : مكتبة النهضة المصرية .

(٢) الملل والنحل — الشهرستانى ج١ ص ١٨٤ط : بيروت .

(٣) يونس بن عبد الرحمن أبو محمد (٢٠٨هـ ٨٢٣) فقيه إمامى عراقى من أصحاب موسى الكاظم له نحو ثلاثين كتاب انظر منهج المقال ص ٣٢٧٧ ت ٣٨٠ وانظر الفهرست ص ٢٢٠ .

(٤) الملل والنحل الشهرستانى ج١ ص ١٨٨ بيروت .

(٥) التبصير — أبو مظفر الاسفراينى ص ٢٤ مطبعة الأنوار ١٩٤٠م .

(٦) شرح المواقف — عضد الدين الإيجى ٢ ص ٤٨٥ ط : دار السعادة ١٢٩٢هـ .

(٧) الكرامية فرقة ظهرت فى القرن الثالث الهجرى على يد رجل يسمى محمد بن كرام ، وقد ولد بسجستان وتوفى سنة ٢٥٥هـ / ٨٦١م و وكان له كثير من الأتباع فى خرسان وسجستان وفى أرض فلسطين ، وقد اعلن محمد بن كرام الكرامية من بعده جميعاً ان الله جسم (البدء والتاريخ المقدسى جـ ٥ ص ٤١) ومذهب ابن كرام خليط من الدينات القديمة والثنويه والافلاطونية والابيقورية واليهود والنصارى وأراء فرق المسلمين كالجهمية المقاتلية ومذهب الكرامية لا يتفق فى أصوله وجزئياته مع عقيدة أهل السنة والجماعة بل لا يتفق مع عقائد فرق المسلمين الاخرى من شيعة ومعتزلة و انظر نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د/ على سامى النشارجـ١ ص ١٩٧ .

(٨) الفرق بين الفرق — البغدادى ص ١٨٩ .

(٩) الملل والنحل — الشهرستانى ج١ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(١٠) هو أحد ملوك الغنوية وهو فاتح الهند توفى ٤٢١هـ ، انظر التبصير فى الدين ت الاسفراينى ص ٦٦ .

(١١) هو وزير السلطان محمود الغنر نوى السابق ذكره .

شهرى تؤخذ اى كراميان رابسريشان به زده معناه (أين كنت ؟ بلديك هذا قد حطم معبود الكراميين على رؤوسهم .

ولما ورد عليهم الإلزام تحيروا فقال قوم منهم أنه أكبر من العرش وقال قوم أنه مثل العرش ، وقال " ابن المهاجر "منهم إن عرضه عرض العرش ، وهذه الأقوال كلها متضمنة لإثبات النهاية ، وذلك علم الحدوث ولا يجوز أنه يوصف به صانع العالم .

وقد عبر ابن كرام عن الإله بالكيفية وعن مكانته بالحيثية ، فقال فى كتابه " عذاب القبر " باب فى كيفوفيه الله عز وجل ، ولا يدرى العاقل مما يتعجب أمن جسارته على إطلاق لفظ الكيفية فى صفات الله تعالى أم من قبع عبارته عن الكيفية بالكيفوفية[١] .

وليت شعرى كيف أطلق الكيفية عليه ولعله أراد أن يخترع من نفسه عبارة لم يسبق تليق بعقله ، ولما أراد " ابن كرام " أن يعبر عن مكان معبوده قال : له حيثوثية يختص بها[٢] وهذه العبارة السخيفة لائقة بمذهبه السخيف .

إذا كان الكرامية قد افتروا على ذلك فلا عجب أن يقولوا إن الإله يلحقه الفناء ، وأنه منتاه ، فالكرامية قد اثبتوا النهاية للإله ، ولكن — عليهم اللعنة — لهم اختلافات فى ذلك فمنهم من أثبت النهاية له من ست جهات ، ومنهم من اثبت النهاية له من جهة تحت ، ومنهم من أنكر النهاية له ، فقال هو عظيم ، ولهم فى معنى العظمة خلاف فقال بعضهم : إن معنى عظمته أنه مع وحدته على جميع أجزاء العرش والعرش تحته ، وهو فوق كله على الوجه الذى هو فوق جزء منه ، وقال بعضهم معنى عظمته أنه يلاقى مع وحدته من وجهة واحدة أكثر من واحد ، وهو يلاقى جميع أجزاء العرش وهو العلى العظيم[٣] .

تعقيب :

تلك هى عقيدة غلاة الشيعة من المشبهة والمجسمة فى الإله فهم يقولون أن الله جسم وأن له استقرار حقيقى على العرش وأنه جوهر وأنهل محل للحوادث وأنه متناه وكل ذلك باطل ومخالف للشرائع السماوية جميعا . ولا يصح إطلاقه على الله عز وجل .

أما بطلان لفظ الجسم عليه تعالى : لأن الجسم هو المؤلف المركب[٤] ولأننا لا نعقل جسما إلا متغايرا مؤتلفا مصورا وهذه الأمور من صفات الحدث ، والبارى سبحانه وتعالى لا يجوز عليه ذلك[٥] .

ولأن الجسم هو ما أحتمل الأعراض كالحركات والسكون وما أشبه ذلك ، فلا جسم إلا ما احتمل الأعراض ، ولا ما احتمل أن تحل الأعراض فيه إلا الجسم[٦] ولأن كل جسم لابد له من أبعاد وتحيز وتألف من جوهر وعرض ونحو ذلك ، وكل مؤلف بإجماع العلماء — منحل وغير أزلى وكذلك المادة المؤلفة منهم[٧] .

ولأنه لو كان جسما لكان متحيز واللازم باطل ، لأنه يؤدى إلى قدم المكان ، ولأنه لو كان جسما لاتصف بصفات الأجسام إما كلها فيجتمع الضدان ، أو بعضها فليزم الترجيح بلا مرجح[٨] ولأنه لو كان جسما لكان مقدرا

---

(١) الفرق بين الفرق — البغدادى ص ١٩٢ .
(٢) التبصير فى الدين — الاسفراينى ص ٦٨ .
(٣) الملل والنحل — الشهرستانى ج١ ص ١٠٩ .
(٤) شرح العقائد النسفية للإمام سعد الدين التفتازانى ص ٤٣ ط : مصطفى الحلبى .
(٥) التمهيد فى الرد على الملحدة — الباقلانى ص ٨٠ ط : دار الفكر العربى .
(٦) مقالات الإسلاميين — الأشعرى ج٢ ص ٤ ط : مكتبة النهضة المصرية .
(٧) كتاب دلائل التوحيد — محمد جمال الدين القاسمى ص ١٠١ ط مكتبة الثقافة الدينية .
(٨) المواقف — عضد الدين الإيجى — مجلد ٢ ص ٢٤٠ .

بمقدار مخصوص ، ويجوز أن يكون أصغر منه ، أو أكبر منه ، ولا يترجع أحد الجائزين عن الآخر إلا بمخصوص ومرجح ، فيفتقر إلى مخصص يتصرف فيه ، بمقدار مخصوص ، فيكون مصنوعا لا صانعا ومخلوقا لا خالقا[١] ومن كل هذا يتضح بطلان لفظ الجسم على الله تعالى .

أما بطلان إطلاق لفظ الجوهر على الله تعالى لأن : كل جوهر لا يخلو عن الحوادث ، ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث . إذن كل جوهر حادث . أما الجوهر لا يخلو عن الحوادث ، فلأنه لا يخلو عن الحركة والسكون الحادثتين ، بحكم أنها من الأعراض ، وقد أثبتنا حدوثهما على أن الحركة انتقالا وتبدلا وزوالا ، والسكون قابل للزوال بالحركة ، وهذا شأن الحادث ، وأما أن كل مالا يخلو عن الحوادث حادث ، فلأنه لو فرض قديما ، والحال أنه لا يخلو عن الحوادث لزم أن يكون الحادث قديما ، وهو تناقض ظاهر[٢] . وكذلك لا يقال عن البارى أنه جوهر لأننا لا نعقل جوهرا إلا شاغلا متحيزا قابلا للحوادث من جنس هذه الجواهر ، وهذه الأمور دالة على حدث من جازت عليه[٣] .

وقد ذكر العلامة " ابن تيميه " أن القول بالجسم والجوهر بدعة ليس لها أصل فى الإسلام ، ولا يجوز أن يقول بها المسلمون فقال : وأما الكلام فى الجسم والجوهر ونفيهما أو إثباتهما فبدعة ليس لها أصل فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا تكلم أحد من السلف والأئمة بذلك لا نفيا ولا إثباتا[٤] .

وكذلك ما زعمه الكرامية من أن الله محل للحوادث فإنه باطل أيضاً لأنه يستحيل قيام الحوادث بذاته تعالى ، والدليل على ذلك : أن كل ما كان قابلا للحوادث فأنه يستحيل خلوه من الحوادث ، وكل ما كان يمتنع خلوه عن الحوادث فهو حادث ، ينتج أن كل ما كان قابلاً للحوادث ، فإنه يكون حادثا . وعند هذا نقول : الأجسام قابلة للحوادث ، فيجب كونها حادثة ونقول أيضاً إن الله تعالى يمتنع أن يكون حادثاً فوجب أن يمتنع كونه قابلاً للحوادث[٥] .

ولأنه لو كان " الله " محل الحوادث — كما يزعم الكرامية — لجاز عليه كل ما يجوز على الحادث ، وأن يلزم الكرامية من ذلك القول : أن يجوزوا حلول الألم واللذة والشهوة والموت والعجز والمرض عليه ، فإن من كان محلا للحوادث لم يستحل عليه هذه الحوادث كالأجسام[٦] .

وقد قال الإمام الشهرستانى " لو قامت الحوادث بذات البارى سبحانه وتعالى : لاتصف بها بعد أن لم يتصف ، ولو اتصف لتغير والتغيير دليل الحدوث ، إذ لابد من مغير ، وتحقيق المقدمة الأولى ، أن معنى قيام الأعراض بمحالها كونها أوصافا لها ، كالعلم إذ قام بجوهر ، وصف الجوهر بأنه عالم ، وكذلك سائر المعانى والأعراض ، فليس ذلك كالوصف ، يكون البارى تعالى خالقا صانعا على مذهب من لم يفرق بين الخالق والمخلوق ، فإن المخلوق لا يقوم بذات الخالق ، والخلق قائم بذاته تعالى عندكم فيجب أن يكون وصفا له ، وكذلك يقال أراد فهو مريد بإرادة وقال فهو قائل بقول ، وإذا تحقق كونه وصفا له بعد أن لم يكن موصوفا به فقد تحقق التغيير ، والتغيير خروج شئ إلى غير ما كان عليه ، ولا يشترط فيه بطلان صفة وتجدد صفة فإنه إذا كان خاليا من صفات ثم اعتراه صفات فقد تغير عما كان عليه ، فليس للخصم اعتراض على هذه الطريقة إلا منع الإتصاف أو منع التغيير[٧] .

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد — الغزالى — ص ٢٤ مطبعة محمد على صبيح .

(٢) محاضرات فى التوحيد والعقيدة والفكر الحديث د / محمد شمس الدين ص ١٣ ط : دار الأنوار .

(٣) التمهيد / الباقلانى / ص ٨٠ ط : دار الفكر العربى .

(٤) بيان موافقة صريح المعقول المنقول — ابن تيميه ص ١٢٣ — ١٢٤ ط : الرياض .

(٥) الأربعين فى أصول الدين — الرازى — ص٤٤ تقديم طه عبد الرؤوف ط : الكليات الأزهرية .

(٦) التبصير فى الدين — الاسفرايني — ص٦٧ مطبعة الأنوار ١٩٤٠م .

(٧) نهاية الاقدام فى علم الكلام — الشهرستانى ص ١١٥ ط : مكتبة زهران .

وننتهى من هذا بأن القول بأن الله محل للحوادث زعم باطل ، وافتراء فاحش وخروج على الشريعة الإسلامية ، وجميع الشرائع الإلهية .

وكذلك ما زعمه المجسمة من الله متناه ، أو غير متناه فتلك طامة كبرى ، وهو قول باطل ، ولا يصح أن يقول به مسلم لأنه سبحانه وتعالى ، لو كان متناهيا — سواء كان من جهة أو من ست جهات أو غير ذلك — كما يزعمون — لزم ذلك أن يكون حادثا . وإذا كان غير متناه — كما يزعمون — لزم ذلك أن تكون ذات الله تعالى فى كل مكان ، بحيث لا يخلو عنها مكان ولا جهة ، فتكون ذات الله تعالى مخالطة لما فى هذا العالم من قاذورات ونجاسات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ثم إن هذا الرأى يؤدى إلى وحدة الوجود[١] .

وقد رد الإمام الرازى على القول بالتناهى وفند هذه الشبهة فقال : إما أن يكون متناهيا من كل الجوانب أو غير متناه من كل الجوانب ، أو يكون متناهيا من بعض الجوانب دون البعض ، والأول باطل وإلا لكان اختصاصه بذلك المقدار المتناهى من كل الجوانب دون الزائد والناقص محتاجا إلى مخصص ، وذلك يوجب الحدوث ، والثانى باطل لأن كل بعد فإنه يقبل الزيادة والنقصان ، وكل ما كان كذلك فهو متناه ، ولأن على هذا التقدير يكون مركبا ، ولأن البعد الممتد إلى غير نهاية يفرض فيه نقطة كبيرة ، ولأن على هذا التقدير تكون المحدثات مختلطة بذاته والثالث باطل : لأن القول بالبعد الذى لا نهاية له ، محال بالدليل الذى ذكرناه سواء كان من كل الجوانب أو من بعضها ، ولأن الجانب المتناهى غير ما هو متناه فيلزم وقوع التركيب[٢] .

وموجز القول أنه لا يجوز أن يقال إن الله تعالى متناهى أو غير متناهى تعالى الله عن ذلك علو كبيرا .

وخلاصة القول : إن مذهب المشبهة والمجسمة مخالف للكتاب والسنة والعقل وأن القول بأن الله جسم أو جوهر أو أنه محل للحوادث أو متناه أو أنه مماس للعرش أو أن العرش محيط به أو أن له استقرار على العرش كاستقرار المخلوقين أو أنه يشبه الإنسان فى ذاته أو صفاته أو أفعاله كل ذلك خارج من الشريعة الإسلامية ، وأن مذهب أهل الحق أن الله لا يشبه شيئا من وجوه المشابهة والمماثلة ، فقد أخبر سبحانه وتعالى عن نفسه بقوله عز وجل { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }[٣] فليس البارى سبحانه وتعالى بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولا فى مكان ولا فى زمان ، ولا قابل للأعراض ولا محل للحوادث وأن القول بالتشبيه التجسيم ،ما هو إلا من تأثير الفكر اليهودى ،تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام — د / على سامى النشار ص ٢٩٩ ط : دار المعارف .

(٢) الأربعين فى أصول الدين — الرازى ص ٤٢ — ٤٣ ط : الكليات الأزهرية .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

المبحث الثانى

صفة الفوقية والعلو بين السلف والخلف والمشبهة

إذا كنا قد انتهينا من الحديث عن صفة استواء الله على عرشه ، كما يليق به ، دون حاجته إليه ليحمله ، بل هو الحامل سبحانه للعرش ، وما دون العرش بقدرته ، سبحانه وتعالى .

وبعد هذا نتحدث عن صفة الفوقيه والعلو وحيث نرى أنها مكملة لصفة الاستواء ومبينة لها . وقبل الحديث عن صفة الفوقية بين السلف والخلف والمشبهة نذكر بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدل على تلك الصفة . أما الآيات القرآنية فمنها قوله تعالى : { أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ }[١] .

وقوله تعالى : { أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا }[٢] وقوله تعالى : { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }[٣] وقوله تعالى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ }[٤] وقوله تعالى { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ }[٥] وقوله تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ }[٦] وقوله تعالى { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ }[٧] وقوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }[٨] وقوله تعالى {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}[٩] وقوله تعالى حكاية عن فرعون { يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}[١٠] فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبر من أنه سبحانه فوق السموات . وقوله تعالى { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }[١١] وهذا تصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتا وقدرا وشرفا .

تلك هى بعض الآيات القرآنية التى صرحت بالفوقية والعلو ، وسوف نذكر بعض الأحاديث النبوية الدالة على صفة العلو ومنه قوله ﷺ " إن الله كتب فى كتاب عنده فوق العرش إن رحمتى وسعت غضبى — أو غلبت غضبى "[١٢] .

ومنها حديث الإسراء والمعراج بكامله[١٣] وفيه نقاط تعتبر نصا فى الموضوع منها نقطة تتحدث عن لحظة فرض الصلوات الخمسين ، حيث خاطبه ربه سبحانه وأسمعه كلامه دون واسطة جبريل ، ومنها تردده بين موسى

---

(١) سورة الملك آية ١٦ .

(٢) سورة الملك آية ١٧ .

(٣) سورة فاطر آية ١٠ .

(٤) سورة آل عمران آية ٥٥ .

(٥) سورة النساء آية ١٥٨ .

(٦) سورة الأنبياء آية ١٩ .

(٧) سورة النحل آية ٥٥ .

(٨) سورة الأنعام آية ٦١ .

(٩) سورة المعارج آية ٤ .

(١٠) سورة غافر آية ٣٦ ، ٣٧ .

(١١) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(١٢) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ج١٧ ص ٦٩ شرح النووى الطبعة الأولى متفق عليه .

(١٣) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ج١٧ ص ٢٥٨ ط الحلبى وأصله متفق عليه .

وبين ربه سبحانه وهو يشفع لأمته فى تخفيف عدد الصلوات المفروضة لتخفض من خمسين إلى خمس من حيث العدد .

وحديث معاوية السلمى قال : " كانت غنيمة لى ترعاها جارية لى قبل أحد والجوانييه فوجدت الذئب قد أخذ منها شاه وأنا رجل من بنى آدم آسف كما يأسفون فصككتها صكة ثم انصرفت إلى رسول الله ﷺ فعظم ذلك على فقلت يا رسول الله أفلا اعتقها ؟ قال أئتنى بها فجئت بها إلى رسول الله ﷺ فقال لها أين الله ؟ قالت فى السماء قال فمن أنا ؟ قالت أنت رسول الله قال إنها مؤمنة فأعتقها[١] .

وحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : " جاء رجل إلى سول الله ﷺ بجارية أعجمية فقال يا رسول الله : إن على عتق رقبة مؤمنة أفأعتق هذه ؟ فقال لها رسول الله ﷺ أين الله فأشارت إلى السماء فقال رسول الله ومن أنا ؟ فأشارت إلى رسول الله وإلى السماء أى أنت رسول الله فقال رسول الله ﷺ أعتقها فإنه مؤمنة[٢] .

فكل هذه الأحاديث وتلك الآيات السابقة تدل دلالة واضحة على إثبات صفة الفوقية والعلو لله عز وجل .

مذهب السلف فى صفة الفوقية والعلو :

إن مذهب السلف من ذلك هو الإيمان بما جاءت به الآيات والأحاديث من غير تعطيل أو تشبيه فهم يؤمنون بأن الله فوق سمواته مستو على عرشه بائن من خلقه . وقد قال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة " من لم يؤمن بأن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه وطرح على مزبلة[٣] .

وكلام السلف فى أثبات صفة العلو كثير جداً : فمنه : ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الانصارى فى كتابه الفاروق بسنده إلى مطيع البلخى : انه سال أبا حنيفة عمن قال : لا أعرف ربى فى السماء ام فى الأرض ؟ فقال : قد كفر لأن الله يقول " الرحمن على العرش أستوى "[٤] .

وعرشه فوق سماوته ، قلت فإن قال : إنه على العرش ، ولكن يقول لا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض ؟ قال هو كافر ، لأنه أنكر أنه فى السماء فمن أنكر أنه فى السماء فقد كفر ، وزاد غيره لأن الله فى أعلى عليين وهو يدعلا من أعلى لا من أسفل انتهى[٥] .

وقال ابن قيم الجوزيه " أجمع المسلمون من الصحابة والتابعين أن الله على عرشه فوق سمواته بائن من خلقه[٦] . هذا هو مذهب السلف فهو يؤمنون بإثبات الصفة دون تكييف .

مذهب الخلف فى صفة الفوقية والعلو :

أما مذهب الخلف فهم قد أولوا تلك الصفة وأخرجوها من معناها الحقيقى إلى معنى مجازى فهو يرون أن صفة الفوقية والعلو ليس المراد منها علو الذات وإنما المراد هو " أنه خير من عباده وأفضل منهم وأنه خير من العرش وأفضل منه كما يقال الأمير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم "[٧] .

---

(١) قال شمس الدين الذهبى فى كتاب العلو : هذا حديث صحيح رواه جماعة من الثقاة عن معاوية السليمى أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وجماعة غير واحد من الأئمة فى تسانيفهم .

(٢) أخرجه ابن خزيمة فى كتابه التوحيد وإثبات صفة الرب ص ١٢٣ ط : الكليات الأزهرية .

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة – ابن قيم الجوزيه ص ٤٤٨ ط : المتنبى .

(٤) سورة طه آية ٥ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوى – تحقيق جماعة من العلماء – ط. دار الفكر العربى ص ٢٦٢ و ٢٦٣ ز

(٦) المرجع السابق ص ٤٥٠ .

(٧) أصول العقيدة الإسلامية – أبو جعفر أحمد بن سلامة الأزدى الطحاوى ص ٩٣ ط : الوفاء الطبعة الأولى .

ولكن هذا القول لا يقره عقل إذ أن علوه سبحانه ثابت بالسمع تروية النصوص وثابت بالفطرة كما ذكر محمد بن طاهر المقدسى أن الشيخ أبا جعفر الهمدانى حضر مجلس الأستاذ أبى المعالى الجوينى المعروف بإمام الحرمين ، وهو يتكلم فى نفى صفة العلو ويقول : كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان فقال الشيخ أبو جعفر أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا فإنه ما قال عارف قط يا الله ، إلا وجد فى قلبه ضرورة العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا ؟ قال فلطم أبو المعالى على رأسه ونزل وأظنه قال وبكى وقال حيرنى الهمدانى حيرنى . أراد الشيخ ، إن هذا أمر فطر الله عليه عباده ، من غير أن يتلقوه من المرسلين ، يجدون فى قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ويطلبه فى العلو .

واعترض على الدليل الفطرى : أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة الدعاء ، كما أن الكعبة قبلة للصلاة ، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس فى جهة الأرض .

وأجيب عن هذا الاعتراض بوجوه :

إحداهما : أن قولكم : أن السماء قبلة الدعاء : لم يقله أحد من سلف الأمة ، ولا أنزل الله به من سلطان ، وهذا من الأمور الشرعية الدينية ، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها .

الثانى : إن قبلة الدعاء هى قبلة الصلاة ، وكان النبى ﷺ يستقبل القبلة فى دعائه .

وأما النقض بوضع الجبهة على الأرض فما أفسده من نقض ، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته . هذا لا يخطر فى قلب ساجد[1] .

وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية " أن الله عز وجل فى كل مكان . وقد رد عليهم الإمام الأشعرى وبين أنه يلزمهم من هذا القول " أنه فى بطن مريم وفى الحشوش والأخلية وهذا خلاف الدين تعالى الله عن قولهم وقال إذا كان الله فى كل مكان فهو تحت الأرض التى السماء فوقها ، وإذا كان تحت الأرض والأرض فوقه والسماء فوق الأرض ، ففى هذا ما يلزمكم أن تقولوا أن الله تحت التحت ، والأشياء فوقه ، وأنه فوق الفوق والأشياء تحته وفى هذا ما يجب أنه تحت ما هو فوقه ، وفوق ما هو تحته ، وهذا من المحال المتناقض تعالى الله عن افترائكم عليه علوا كبيرا[1] .

تعقيب :

هذا هو مذهب السلف والخلف فى صفة الفوقية والعلو وقد ظهر ما قدمنا أن مذهب السلف أقوى وأرجح وأصوب ، وأن مذهب الخلف فى التأويل مخالف لما وردت به النصوص من الكتاب والسنة ويكفى فى ذلك حديث النبى ﷺ للجارية والسؤال بلفظ " أين الله " وعندما أجابت أنه فى السماء أقرها على تلك الإجابة ورضى بها وشهد لها بالإيمان حيث قال ﷺ لمعاوية بن الحكم السلمى " أعتقها فإنها مؤمنة " . وحديث الإسراء والمعراج الذى عرج فيه بالنبى ﷺ إلى ما فوق السموات العلى حيث سمع صريف الأقلام . وكلام المولى عز وجل معه بدون واسطة . كل ذلك يثبت صفة الفوقية والعلو لله عز وجل . ويؤيد مذهب السلف فيما ذهبوا إليه ، ويبطل مذهب الخلف الذين قالوا بالتأويل وبتعطيل الصفة وإخراجها عن معناها الحقيقى إلى معنى مجازى .

ثم إن صفة العلو : هى صفة لازمة لله عز وجل بمعنى أنه تعالى لم يزل فى علوه ، وهى فى الوقت نفسه عقلية وسمعية أى فهى ثابتة بالعقل والفطرة والسمع ، بل السمع جاء مؤكدا بما آمن به العباد بفطرهم وبعقولهم أن الله يدعى من فوق ، وترفع إليه أكف الضراعة وقلوب العباد مشدودة إلى فوق ، ولو فى حال وضعهم جباههم على الأرض ساجدين لربهم الأعلى الذى يراهم من فوقهم ، ويجيب دعوتهم ، وهم ساجدون له سبحانه ، وهذا الاعتقاد

---

(١) أصول العقيدة الإسلامية – أبو جعفر الطحاوى ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة – أبى الحسن الأشعرى – ص ٣٤ .

ضرورى لا يستطيع أى إنسان دفعه من نفسه . ومن الحكم اللطيفة أن شرع الله لعباده أن يقولوا فى سجودهم " سبحان ربى الأعلى " شرع لهم ذلك على لسان نبيه ، وفى هدى رسوله إشارة إلى علوه الدائم . حتى لا يفهم من سجود العبد على الأرض أن معبوده فى أسفل منه — حاشاه — بل كلما يزداد العبد خضوعا وتزللا لمعبوده العلى العظيم ، إزداد منه قربا معنويا ومعية خاصة . تخص خواص عباده المؤمنين ، وفى هذا يقول الرسول ﷺ " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء "[١] .

وأما إدعاء المعتزلة وغيرهم من أن الله فى كل مكان فهو إدعاء باطل فإن الذى هو فى كل مكان هو علم الله وليس ذات الله عز وجل فقد " أجمع المسلمون من الصحابة والتابعين أن الله على عرشه فوق سماواته بائن من خلقه .

وقال أبو نصر السجزى الحافظ فى كتاب الإبانة : وأئمتنا كالثورى ومالك وابن عيينه وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد وابن المبارك ، وفضيل ابن عياض وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله فوق العرش بذاته وأن علمه بكل مكان "[٢] .

مذهب المشبهة فى صفة العلو :

إن قد انتهينا من الحديث عن مذهب السلف والخلف فى صفة العلو نجد أن المشبه والمجسمة لهم فى ذلك رأى مخالف للعقل والنقل ولجميع الشرائع السماوية فمنهم من زعم " أن ربه لحم ودم على صورة الإنسان "[٣] ، وقال[٤] " هو جسم لحم ودم وله جوارح وأعضاء وهو أجوف من فمه إلى صدره ومصمت ما سوى ذلك "[٥] ، ومنهم[٦] من كان " يزعم أنه عرج به إلى السماء فمسح الرب بيده على رأسه "[٧] . إلى غير ذلك من أقوالهم الضالة ومفترياتهم الكاذبة التى أخذوها من اليهود ، فهم الذين قالوا فى الله عز وجل أنه : " اشتكت عيناه فعادته الملائكة ، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه ، وأن العرش لتئط[٨] من تحته كأطيط الرحل الحديد ، وأنه ليفضل من كل جانب أربع أصابع "[٩].

تلك هو مذهب المشبهة والمجسمة فى صفة العلو فهم يقولون أن الله شبيه بالإنسان وأنه لحم ودم وذو جرم وكثافة ووزن وثقل وأن العرش تئط من تحته من ثقل ما تحمل ومنهم من يزعم أنه عرج به إلى السماء وأنه رأى ربه إلى غير ذلك من أقوالهم الضالة التى تعد خروجا عن الشريعة الإسلامية تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

---

(١) صحيح مسلم باب ما يقال فى الركوع والسجود ج٤ ص ٢٠٠ ط : الدار السلفية .

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . ابن قيم الجوزيه ص ٤٥٠ .

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل — ابن حزم ج٥ ص ٤٠ ط : عكاظ .

(٤) هذا الرأى ينسب إلى داود الجواربى مؤسس فرقة الجواربية من غلاة الشيعة .

(٥) تلبيس إبليس — ابن الجوزى البغدادى — ص ٥٨ ط : دار إحياء الكتب العربية .

(٦) هذا القول ينسب إلى ابن منصور العجلى وهو من الكوفة من عبد قيس وله فيها دار وكان منشأه بالبادية وكان أميا لا يقرأ — انظر فرق الشيعة النوبختى والقمى ص ٤٦ ط : دار الرشاد .

(٧) تلبيس إبليس — ابن الجوزى البغدادى ص ٩٦ — بتحقيق لجنة من العلماء .

(٨) يئط : يرسل صوتا من ثقل ما يحمل .

(٩) الملل والنحل — الشهرستانى —ج١ ص ١٠٦ ط : دار صعب بيروت .

المبحث الثالث

صفة المعية والقرب

بعد أن انتهينا من الحديث عن صفة الفوقية والعلو نتحدث عن صفة المعية والقرب ، ويلاحظ أن بعض الناس يتصورون – خطأ – صعوبة التوفيق بين الفوقية والعلو وبين معية الله وقربه من عباده وأنه معهم حيثما كانوا . ولكن المدقق فى النصوص الواردة فى ذلك الشأن يرى أنه ليس هناك صعوبة وإنما صفة المعية مكملة لصفة العلو إذا أن إجماع السلف على أن الله عز وجل فوق سماواته مستو على عرشه وأن علمه فى كل مكان لا يخفى عليه شئ ، وقد سبق ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على صفة الفوقية والعلو ، وسوف نذكر هنا بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على صفة المعية والقرب .

أما الآيات القرآنية التى وردت فى معية الله تعالى وقربه من عباده فمنها قوله تعالى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ }(١) وقوله { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ }(٢) وقوله { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }(٣) . وقوله { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }(٤) وقوله { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }(٥) وقوله { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ }(٦) وقوله {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}(٧) .

تلك هى بعض الآيات التى تثبت المعية والقرب من عباده والمدقق فى هذه الآيات يجد أن المعية تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : معية عامة تثبت أحكامها لجميع الخلق بمعنى أن الله مع جميع ما خلق يعلم ما هم عليه ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى الأرض ولا فى السماء ، بل قد أحاط بكل شئ علما وأحصى كل شئ عددا ، ومن نصوص المعية العامة ما سبق ذكره مثل قوله تعالى {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ }(٨) .

القسم الثانى : المعية الخاصة ، وهذا القسم لخواص عباده تعالى الذين خصهم بالتوفيق ، فتحلوا بالتقوى والإحسان والصبر وجميع الشمائل الكريمة ومن أمثلة هذا القسم ما سبق ذكره مثل قوله تعالى { إن الله مع الصابرين }(٩) وقوله تعالى { إن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون }(١٠) .

والمعية بقسميها لا تفيد المخالطة والممازجة الذاتية لا شرعا ولا لغة . بل تمنع ذلك باعتبار إضافتها إلى الله تعالى ، أما لغة فإن لفظ (مع) لا تدل إلا على مطلق المصاحبة والمقارنة ، وهذه المقارنة أو المصاحبة أعم من أن تكون

---

(١) سورة الحديد آية ٤ .
(٢) سورة النساء آية ١٠٨ .
(٣) سورة طه آية ٤٦ .
(٤) سورة التوبة آية ٤٠ .
(٥) سورة البقرة آية ٢٤٩ .
(٦) سورة محمد آية ٣٥ .
(٧) سورة الشعراء آية ٦٢ .
(٨) سورة الحديد آية ٤ .
(٩) سورة البقرة آية ٢٤٩ .
(١٠) سورة النحل آية ١٢٨ .

بالذات أو بمعان آخر . وإن السياق والقرائن التى تحيط بالمقام هى التى تعين نوع المصاحبة ، فإذا وصف الله نفسه بالمعية فى عديد من الآيات القرآنية فعلينا أن نؤمن بأن معيته إنما هى معية علم وإطلاع وإحاطة إن كانت عامة . وتزيد عليها معنى الحفظ والنصر والتأييد إن كانت خاصة .

مذهب السلف فى صفة المعية :

إن مذهب السلف فى صفة المعية هو أن الله عز وجل فوق سماواته مستو على عرشه بائن من خلقه وإن علمه فى كل مكان لا يخفى عليه شئ . وقد ذكر ذلك الإمام : أبو حنيفة ، ومالك والشافعى وبن حنبل ، حيث : قال جنبل : قلت لأبى عبد الله (أى أحمد بن حنبل) ما معنى قوله تعالى (وهو معكم — وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) قال : علمه محيط بالكل وربنا على العرش بلا حد ولا صفة ، أراد أحمد أن ينفى الصفة نفى الكيفية والتشبيه وبنفى الحد نفى حد يدركه العباد ويحدونه[١] . وقال مالك الله فى السماء وعلمه فى كل مكان[٢] .

وقال شيخ الإسلام — ابن تيميه — وهو سلفى العقيدة " فكل من قال إن الله بذاته فى كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع سلف هذه الأمة وأئمتها ولصريح المعقول[٣] .

هذا هو مذهب السلف فى صفة المعية والقرب وهو مذهب متفق مع الشريعة الإسلامية ومطابق لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ .

مذهب الخلف فى صفة المعية :

إن مذهب الخلف فى صفة العية والقرب يختلف عن مذهب السلف فهم يرون أن الله عز وجل ليس فى سماواته ولا مستو على عرشه ، وإنما هو فى كل مكان بذاته وقالوا " لو كان فى السماء وأن السماء محيطة به من جميع الجوانب فيكون أصغر من السماء ، والسماء أصغر من العرش بكثير فيلزم أن يكون الله شيئا حقيرا بالنسبة إلى العرش ، وهذا باتفاق أهل الإسلام محال[٤] .

ولكن يكون هذا الرأى صوابا لو كان الله عز وجل جسما له حد ونهاية . أما أنه سبحانه وتعالى منزه عن الجسمية وعن الحد والنهاية إذا السماء ليست محيطة به ، فيكون هذا الرأى مجانباً للصواب .

قال الحافظ بن القيم فى صدر حديثه عن المعية والقرب " وهذا القرب لا ينافى مباينة الله لخلقه واستوائه على عرشه ، بل يلازمه ، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولكنه نوع آخر[٥] أى قرب معية وعلم وإطلاع وإحاطة وشمول .

ولكن الجهمية قالوا : " إن الله معنا وفينا "[٦] وقالوا " ليس على العرش شئ "[٧] فهو يرون أن الله فى كل مكان بذاته وتعلقوا ببعض النصوص وحاولوا أن يفهموا منها ما يؤيد رأيهم . ولكن هذه النصوص فى حقيقتها لا تدل على ذلك لو فهموها حق فهما وتلك النصوص هى :

قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }[٨] .

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة — ابن قيم الجوزية ص ٤٤٩ ، وانظر الجواهر الكلامية فى العقيدة الإسلامية — طاهر الجزائرى ص ٣٩ ط : عالم الكتب بيروت .

(٢) الصواعق المرسلة ص ٤٤٩ ط : مكتبة المتنبى بالقاهرة .

(٣) مجموع الفتاوى — ابن تيميه ج٥ ص ١٣٠ ط : الرياض .

(٤) التفسير الكبير — الرازى ج٢٦ ص ٦٩ .

(٥) مدارج السالكين — ابن القيم الجوزيه ج٢ ص ٢٦٦ ط : الصبان بمصر .

(٦) الرد على الجهمية الزنادقة — أحمد بن حنبل ص ١٣٨ ط : دار اللواء الرياض .

(٧) الصواعق المرسلة — ابن قيم الجوزية ص ٤٤٩ .

(٨) سورة الحديد آية ٤ .

وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }[١] .

تلك هى الآيات التى تعلق بها المأولة الذين قالوا إن الله بذاته فى كل مكان فقالوا فى قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم – وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) أى أنه بذاته معهم لا بعلمه وإطلاعه .

ولكن المدقق فى الآيتين السابقتين يجد أن المعية فى الآيتين عامة ، فآية سورة الحديد يخبر الله فيها بأنه سبحانه عالم بكل ما يجرى فى العالم السلفى والعلوى بالتفصيل وهو مع عباده أينما كانوا لأنه بصير بجميع أعمالهم خبير بها فذكر العلم فى أول الآية قبل ذكر المعية ثم تزييل الآية بأنه بصير بأعمالهم قرينة واضحة بأن المراد بالمعية معية العلم والإحاطة ، أما قرينة سورة المجادلة فإنها أقوى وأصرح حيث بدأت الآية الحديث بالعلم وختمت بالعلم أيضا .

وقد رد الإمام أحمد بن حنبل على الجهمية الذين قالوا إن الله معنا وفينا بقول الله جل ثناؤه حيث يقول { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }[٢] .

ثم قال { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }[٣] يعنى الله بعلمه { وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ } يعنى الله بعلمه { سَادِسُهُمْ } { وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ } يعنى بعلمه فيهم { أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

يفتح الخبر بعلمه ويختمه بعلمه ، ويقال للجهمى : إن الله إذا كان معنا بعظمته نفسه فقل له ، هل يغفر الله لكم فيما بينه وبين خلقه ؟

فإن قال نعم فقد زعم أن الله بائن من خلقه دونه ، وإن قال لا كفر . وإذا أردت أن تعلم أن الجهمى كاذب على الله حين زعم أن الله فى كل مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان ، فقل : أليس الله كان ولا شئ ؟ فيقول نعم .

فقل له : حين خلق الشئ خلقه فى نفسه أو خارجا من نفسه فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال لابد له من واحد منها .

إن زعم أن الله خلق الخلق فى نفسه كفر ، حين زعم أن الجن والأنس الشياطين فى نفسه ، وإن قال : خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا كفرا أيضاً[٤] .

وقال الحافظ بن عبد البرد ردا على الجهمية ومن سار على نهجهم وأما احتجاجهم بقوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا)[٥] .

فلا حجة لهم فى ظاهر هذه الآية لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا فى تأويل هذه الآية :

هو على العرش وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى ذلك أحد يحتج بقوله[٦] . وهذا الكلام من ابن عبد البر لا يعنى إلا الإجماع .

---

(١) سورة المجادلة آية ٧ .

(٢) سورة المجادلة آية ٧ .

(٣) سورة المجادلة آية ٧ .

(٤) الرد على الجهمية والزنادقة – أحمد بن حنبل ١٣٨ – ١٣٩ ط : بيروت .

(٥) سورة المجادلة آية ٧ .

(٦) التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد – ابن عبد البر ج٧ ص ١٣٩ ط : وزارة الأوقاف بالمغرب .

وقبل نهاية حديثنا عن صفة المعية نحب أن ننوه بفائدة تتعلق بهذه الصفة ، حيث ذكر الله عز وجل قربه من بعض عباده فى حالتين اثنتين فقط .

الأولى : ذكر فى معرض إجابة الدعاء من دعاه حيث يقول الله تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }[١] ومعنى القرب هنا واضح ، وهو قرب إجابة من دعاه ، إذ هو معه ، قريب منه ، يرى مكانه ، ويسمع دعائه ويعلم ما يريد العبد أن يقوله قبل أن يقوله لأنه هو الذى وفقه ليدعوه ، ثم هو الذى يجيب دعاه ، فهذا قربه من داعيه .

والثانية : ذكر القرب فى إثابة عابديه والمتقربين إليه بالأعمال الصالحة ، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "[٢] وقال عليه الصلاة والسلام " أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر "[٣] .

وورد فى صحيح البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال " كنا مع النبى عليه الصلاة والسلام فى سفر فارتفع أصواتنا بالتكبير فقال : أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا ، إن الذين تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته "[٤] .

هكذا ينتهى الحديث عن صفة المعية عند السلف والخلف ولننظر ماذا قال المشبهة فى تلك الصفة .

صفة المعية عند المشبهة والمجسمة :

إذا كان الجهمية زعموا أن الله – عز وجل – معهم فى كل مكان بذاته وأنه فيهم[٥] فهناك من زاد على كفرهم وضلالهم وزعم أنه رأى ربه[٦] وقال " إن معبوده رجل من نور على رأسه تاج ، وله من الأعضاء الخلق مثل ما للرجال وله جوف وقلب تنبع منه الحكمة[٧] . وقال أنه جسم ذو أعضاء على مثال حروف الهجاء[٨] . فالألف موضع قدميه والميم رأسه ، والسين صورة أسنانه ، والعين والغين صورة أذنيه ، والصاد والضاد صورة عينيه ، وشبه الهاء بالفرج[٩] . فقال لو رأيتم موضعها منه لرأيتم أمرا عظيما ، يعرض له بالعورة وبأنه رآه ، لعنه الله[١٠] .

وهذا هو مذهب المشبهة والمجسمة – عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين – ولكن مذهبهم هذا ما هو إلا امتداد لمذهب اليهود الذين قالوا فى توراتهم " يكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه "[١١] . وقالوا أن الإله يقول " أحشائى أحشائى توجعنى ، جدار قلبى يئن فى قلبى لا أستطيع السكوت "[١] إلى غير ذلك من افكهم وضلالهم وافتراءهم الذى يسخر به العهد القديم المحرف وتلمودهم المزيف .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٦ .

(٢) أخرجه مسلم ج١ ص ٣٥٠ ط : الدار السلفية .

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم من حديث عمرو بن عيينه وصححه الحاكم على شرط مسلم وأقره الذهبى أنظر فيض القدير ج٢ ص ٦٩ ط : بيروت .

(٤) صحيح البخارى كتاب التوحيد ص ١٧ ص ١٤٤ ط : البابى الحلبى .

(٥) الرد على الجهمية والزنادقة – أحمد بن حنبل ص ١٢٨ .

(٦) صاحب هذا الزعم هو : المغية بن سعيد البجلى قتل سنة ١١٩هـ .

(٧) مقالات الإسلاميين – الأشعرى ج١ ص ٦٩ – ٧٢ ط : النهضة المصرية .

(٨) الملل والنحل – الشهرستانى ج١ ص ١٧٧ .

(٩) التجسيم عند المسلمين – د / سهير محمد مختار ص ١٣٢ ط : الإسكندرية .

(١٠) مقالات الإسلاميين – الأشعرى ج١ ص ٧٢ .

(١١) العهد القديم – سفر الخروج إصحاح ٣٣ فقرة ١١ .

(١) العهد القديم – سفر ارميا إصحاح ٤ فقرة ١٩ .

المبحث الرابع

صفة النزول

هذه الصفة هى من صفات الأفعال التى كثر فيها الخلاف بين السلف والخلف وذلك كاختلافهم فى الاستواء والعلو والمعية . ولكن هذه الصفة لم يرد ذكرها فى القرآن الكريم ، ولكن ورد ذكرها فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصه " ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، من ذا الذى يدعونى فأستجب له من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر"[١] .

مذهب السلف فى : صفة النزول

إن مذهب السلف فى صفة النزول أنهم يؤمنون بالنزول صفة حقيقة لله عز وجل على الكيفية التى يشاء فيثبتون النزول كما يثبتون جمع الصفات التى ثبتت فى الكتاب والسنة ، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ، ولا يمثلون ، ولا ينفون ، ولا يعطلون ويقولون أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبرنا كيف ينزل[٢] .

وقد سئل الإمام أبو حنيفة عن صفة النزول فقال " ينزل بلا كيف "[٣] وقال الإمام الشافعى : السنة التى أنا عليها ورأيت أهل الحديث عليها ، مثل سفيان ومالك وغيرهما الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله — إلى أن قال — وإن الله فوق عرشه فى سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل على سماء الدنيا كيف شاء[٤] . وسئل الإمام " أحمد بن حنبل " عن الأحاديث التى تروى " إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا " فقال نؤمن بها ، ونصدق بها ، ولا كيف ولا معنى ، ولا نرد منها شيئا ، ونعلم أن ما جاء به الرسول — صلى الله عليه وسلم — حق إذا كان بأسانيد صحاح ، ولا نرد على الله قوله ولا يوصف الله تبارك وتعالى بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شئ[٥] .

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة : أن أحاديث النزول رواها علماء الحجاز والعراق عن النبى صلى الله عليه وسلم فى نزول الرب جلا وعلا إلى سماء الدنيا كل ليلة ، نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما فى هذه الأخبار من ذكر نزول الرب من غير أن يصف الكيفية لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ، وأعلمنا أنه ينزل ، والله جل وعلا (لم يترك) ولا نبيه عليه السلام بيان ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم فنحن قائلون مصدقون بما فى هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية إذ النبى صلى الله عليه وسلم لم يصف لنا كيفية النزول ، وفى الأخبار ما بان وثبت وصح أن الله جل وعلا فوق سماء

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه — باب الدعاء أول الصلاة من آخر الليل ج٣ ص ٢٩ ، وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل والإجابة فيه ج١ ص ٥٣١ — بروايات متعددة ، وقال الذهبى فى كتابه العلو ص ١١٦ حديث النزول بلغ حد التواتر لكثرة طرقه وقوتها .

(٢) شرح العقيدة الواسطية شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠٩ ط مكتبة التراث الإسلامى .

(٣) الأسماء والصفات البيهقى ص ٥٧٢ .

(٤) الصواعق المرسلة — ابن الجوزى ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(٥) الجواهر الكلامية فى العقيدة الإسلامية — الشيخ طاهر الجزائرى ص ٣٨ ، ٣٩ .

الدنيا الذى أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ينزل إليه إذ محال فى لغة العرب أن يقال ينزل من أسفل إلى أعل ومفهوم فى الخطاب أن النزول من أعلى إلى أسفل[١] .

وقال إسحاق بن راهويه يقول : دخلت على عبد الله بن طاهر فقال له : يا أبا يعقوب تقول إن الله ينزل كل ليلة ؟ فقلت : أيها الأمير ، إن الله بعث إلينا نبيا نقل إلينا عنه أخبار بها تحلل الدماء ، وبها تحرم ، وبها نحلل الفروج وبها نحرم ، وبها نبيح الأموال وبها نحرم فإن صح ذا صح ذاك ، وإن بطل ذا بطل ذاك . قال فأمسك عبد الله[٢] .

وهذا هو مذهب السلف فهم يثبتون نزول الرب سبحانه إلى سماء الدنيا دون الخوض والتنقيب عن الكيفية فهم لا يبالغون فى الإثبات إلى حد التشبيه والتجسيم ، كما لا يبالغون فى النفى إلى حد التعطيل بل يقفون مع ظاهر النصوص ولا يتجاوزنها وذلك إيمانا منهم بأن معرفة الصفة متوقفة على معرفة الموصوف ، وحيث آمن العباد إيمان تسليم دون البحث عن كنة ذاته سبحانه وتعالى فكذلك يجب الإيمان بجميع الصفات التى أثبتها لنفسه أو اثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم دون البحث عن كنة حقيقة الصفات ، لأن معرفة حقيقة الصفة متوقفة على معرفة حقيقة الذات ولا سبيل للعباد إلى ذلك . فيلزمهم التفويض دون التنقيب .

يقول الإمام ابن تيمية فى هذه المسألة : إن الصواب المأثور عن سلف الأمة وأئمتها أن الله سبحانه لا يزال فوق العرش ، ولا يخلو منه العرش مع دنوه ونزوله إلى السماء الدنيا ، ولا يكون العرش فوقه ، وليس نزوله كنزول أجسام بنى آدم من السطح إلى الأرض بحيث يبقى السقف فوقهم[٣] . وقال المزنى " حديث النزول قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجوه صحيحة وورد فى التنزيل ما يصدقه وهو قوله تعالى { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا }[٤] والمجئ والنزول صفتان منفيتان عن الله تعالى من طريق الحركة والانتقال من حال إلى حال بل هما صفتان من صفات الله تعالى بلا تشبيه جل الله تعالى عما يقول المعطلة لصفاته ، والمشبهة بها علوا كبيرا[٥] .

مذهب الخلف فى : صفة النزول :

أما موقف الخلف فى صفة النزول فهو كموقفهم فى جميع الصفات على ما تقدم تفصيله من وجوب التأويل وعدم اعتقاد ظاهر النصوص . أما النزول فقد أولوه بنزول الملائكة تارة وبنزول الأمر تارة أخرى يقول ابن الأثير الجزرى[٦] " إن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا " النزول والصعود والحركة من صفات الأجسام ، والله تعالى عن ذلك وتقدس ، والمراد به نزول الرحمة والألطاف الإلهية ، وقربها من العباد ، وتخصصها بالليل والثلث الأخير منه ، لأنه وقت التهجد غفلة الناس عمن يتعرض لنفحات رحمة الله وعند ذلك تكون النية خالصة ، والرغبة إلى الله وافرة وذلك مظنة القبول والإجابة[٧] .

أما الأشاعرة فقد أولوا تلك الصفة فقد نقل عن أبو الحسن الأشعرى أنه قال فى النزول إن المراد به فعل يحدثه الله عز وجل فى سماء الدنيا كل ليلة يسميه نزولا بلا حركة ولا نقلة ، تعالى الله عن صفات المخلوقين ، وقد سئل حماد بن زيد عن النزول فقال نزوله إقباله[٨] .

---

(١) التوحيد وإثبات صفات الرب – ابن خزيمة ص ١٢٥ – ١٢٦ .
(٢) الأسماء والصفات البيهقى ص ٥٦٧ – ٥٦٨ .
(٣) مجموع الفتاوى – ابن تيميه ج٥ – شرح حديث النزول ص ٣٧٤ ط : الرياض .
(٤) سورة الفجر آية ٢٢ .
(٥) الأسماء والصفات البيهقى ص ٥٧٢ ط : دار الكتب العلمية بيروت .
(٦) ابن الأثير الجزرى توفى سنة ٦٠٦هـ ورأيه هذا اعتمده علماء الأمة الإسلامية .
(٧) الجواهر الكلامية فى العقيدة الإسلامية – طاهر الجزائرى ص ٢١ .
(٨) المرجع السابق ص ٢١٢ .

أما اتباع أبو الحسن الأشعرى فقد خرجوا أحاديث النزول على وجهين :

الأول : أن يكون المراد من نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا إنزال رحمته وإحسانه وعطفه ورأفته لعباده .

الثانى : أن يكون مراده فى نزوله تبارك وتعالى إنزالى ملك ينادى بأمره[١] .

وقد فسر الرازى – وهو من متأخرى الأشاعرة – حديث النزول من عدة وجوه حيث قال :

١ – إن النزول يستعمل فى غير الانتقال كما فى قوله تعالى { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ }[٢] ومعلوم أن البقر والجمل لا ينزل من السماء إلى الأرض ، وكما فى قوله تعالى { فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ }[٣] والانتقال على السكينة محال .

٢ – أنه إن كان المقصود من النزول إلى السماء الدنيا أن يسمع ندائه تعالى فهذا المقصود ما حصل وإن كان المقصود مجرد النداء سمع أو لم يسمع فهذا لا حاجة فيه إلى النزول .

٣ – أن السماء الدنيا بالنسبة إلى ما فوقها من الأجرام شئ صغير جدا ، فكيف بالنسبة إلى الله جل شأنه ، فلو كان البارى ينزل إليها حقيقة للزم إما التداخل أو فناء بعض أجزائه وكلاهما محال .

وإذا استحال النزول الحقيقى على الله تعالى فلابد من حمله على المجاز . والمعنى تتنزل رحمته أو ملائكته ، أو يكون المراد أن هذا الوقت أرجى لإجابة الدعاء وقبول الأعمال[٤] .

وهناك شبهة تقول : إذا كان بعض روايات الحديث قيدت النزول بالثلث الأخير من الليل فمن المعلوم أنه لا تخلو لحظة من لحظات اليوم من ثلث أخير من الليل فى بقعة من بقاع الأرض فالمطالع مختلفة والأرض كروية فعلى أى توقيت يتم نزول الله ، أم يظل تعالى نازلا يدور مع الفلك ، أو يستقر فى مكان يدور حوله الفلك . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

تلك هى شبهة المنكرين لحديث النزول ولكن نقول لهم " إنما ينكر هذا وما أشبهه من يقيس الأمور فى ذلك بما يشاهده من النزول الذى هو نزوله من أعلى إلى أسفل وانتقال من فوق إلى تحت ، وهذه صفة الأجسام والأشباح ، فأما نزول من لا يستولى عليه صفات الأجسام فإن هذه المعانى غير متوهمة فيه فهو سبحانه يفعل ما يشاء لا يتوجه على صفاته كيفية ، ولا على أفعاله كمية .

ثم إن حديث النزول قد روى عن جمع من الصحابة منهم " أبو بكر الصديق ، وعلى ابن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبادة بن الصامت ، ورفاعة بن عراية ، وجابر بن عبد الله ، وعثمان بن أبي وقاص ، وأبى الدرداء وأنس ابن مالك ، وعمر بن عبسة ، وأبى موسى الأشعرى ، وغيرهم رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى فيه عن عبد الله بن عباس وأم سلمة وغيرهما رضى الله عنهم[٥] .

وقال " عباد بن العوام " قدم علينا شريك بن عبد الله من نحو خمسين سنة ، قال فقلت يا أبا عبد الله إن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث " أى أحاديث النزول " قال فحدثنى بنحو من عشرة أحاديث فى هذا وقال : أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمن أخذوا[٦] ؟ .

---

(١) الأسماء والصفات – البيهقى ص ٥٦٦ .

(٢) سورة الزمر آية ٦ .

(٣) سورة الفتح آية ٢٦ .

(٤) أثاث التقديس – الرازى ص ١٣٤ .

(٥) الأسماء والصفات البيهقى ص ٥٦٧ .

(٦) الأسماء والصفات البيهقى ص ٥٦٧ .

مذهب المشبهة فى صفة النزول :

إن مذهب المشبهة يختلف عنه مذهب السلف والخلف فهم منزهون ، والمشبهة مجسمون فهم يزعمون أن الله – عز وجل – جسم على صورة إنسان وأنه يجوز على الإله كل ما يجوز على الإنسان من الحركة والسكون ، والنزول والصعود والملامسة والمصافحة والجلوس معه والتزاور وغير ذلك . فقد زعم هشام بن الحكم : أن ربه جسم ذاهب جاء فيتحرك تارة ويسكن أخرى ، ويقعد مرة ويقوم أخرى ، وأنه طويل عريض عميق[١] . وأنه جسم كالأجسام[٢] . وأنه عالم بعلم محدث[٣] .

وكذلك مذهب الحشوية[٤] يقوم على التجسيم المطلق بلا حدود فيرون أن إلههم جسم له طول وعرض وعمق وتجوز عليه الملامسة ، والمصافحة ، والمكالمة ، وقد يمرض ويصح ، وقد يكون جسما أجوف فى بعضه مصمتا فى بعضه الآخر[٥] . ويقولن بأن الله – تعالى عن قولهم – على صورة شاب أمرد له شعر قطط وفى رجليه نعل من ذهب ينزل يوم عرفة على جمل أحمر ، وينزل فى كل ليلة جمعة ، وقال بعضهم هو شيخ أشمط الرأس واللحية[٦] . تعالى الله عن قول المبطلين[٦] .

ويقول الشهرستانى فى وصف مذهب الحشوية : أنهم أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه فى الدنيا والآخرة ، إذا بلغوا فى الرياضة والاجتهاد إلى حد الاخلاص والاتحاد المحض[٧] ، وحكى الكعبى عن بعضهم أنه كان يجوز الرؤيا فى دار الدنيا وأن يزوره ويزورهم[٨] .

تلك هو مذهب المشبهة ومن الواضح أن هذه الآراء خارجة عن ملة الإسلام ولا يخالف فى ذلك القول إلا ممن هو على شاكلة هؤلاء القوم الضالون . ثم أن هذه الآراء ما هى إلا من نتاج الفكرى اليهودى الملعون . فقد زعم اليهود أن الإله شبه الإنسان فقد جاء فى توراتهم المحرفة " وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا شبهنا "[٩] فهذه الفقرة تدل على أن الإنسان شبيه بالإله ، ويقول ابن حزم لو لم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح وهو أن تضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق كما تقول هذا عمل الله . لكن قوله " كشبهنا " منع التأويلات وسد المخارج وقطع السبل وأوجب شبه آدم لله عز وجل ولابد ضرورة وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل ، إذا الشبه والمثل معناها واحد ، وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبه[١٠] .

---

(١) مقالات الإسلاميين – أبو الحسن الأشعرى ج١ ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ج١ ص١٠٨ .

(٣) شرح الأصول الخمسة – القاضى عبد الجبار ص ١٨٣ ط : مكتبة وهبة ١٩٦٥م .

(٤) الحشوية : هم جماعة من أهل الحديث اسرفوا فى التمسك بظاهر الآيات والأحاديث حتى وقعوا فى التشبيه والتجسيم ، انظر تاريخ الفرق الإسلامية د / محمود على مزروعة ص ١٧٩ ط : دار المنار .

(٥) تاريخ الفرق الإسلامية د / محمود مزروعة ص ١٧٩ ط : دار المنار .

(٦) شمط الشئ شمطا : اختاط بغيره ، ويقال شمط شعره اختلاط سواده ببياضه ، انظر المعجم الوسيط – معجم اللغة العربية ج١ ص ٥١٣ ط : ٣ .

(٦) المواقف – عضد الدين الإيجى المجلد الثانى ص ٣٤٠ .

(٧) الملل والنحل الشهرستانى ج١ ص ١٠٥ .

(٨) المرجع السابق .

(٩) العهد القديم – سفر التكوين إصحاح ١ فقرة ٢٦ .

(١٠) الفصل فى الملل والأهواء والنحل – ابن حزم ج١ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

وكذلك زعم اليهود أنه رأوا الله فقد جاء فى أسفارهم " أنه صعد موسى وهارون وناداب وابيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات السماء فى النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل[١] .

فهذا القول تجسيد لاشك فيه وتشبيه لا خفاء به وإن العهد القديم ليزخر بالكذب والافتراء على الله عز وجل فاليهود ينظرون إلى الله نظرة إزدراء واحتقار ومهانة ، فهم يرون أن الله جسم مثل البشر ، وأنه يفعل ما يفعله البشر من الاجتماعات واللقاءات وغير ذلك ، بل وصل بهم الأمر إلى أن فضلوا بعض البشر عليه ، فزعموا أنه ملك المؤابين بالاق بن صفور أرسل إلى رجل يدعى " بلعام بن بعور " لكى يلعن شعب إسرائيل ، وإن إلههم نزل بنفسه إلى بلعام واجتمع معه وحذره من أن يلعن شعب إسرائيل وقد جاء هذا الافتراء الأثيم فى سفر العدد[٢] .

وأيضا يزعم اليهود أن الإله يصيبه التعب والنصب والراحة فقد جاء فى سفر الخروج " فى ستة أيام صنع الرب والسماء والأرض وفى اليوم السابع استراح وتنفس "[٣] .

تلك هى عقيدة اليهود فى الإله ومن الواضح أن المشبه والمجسمة قد تأثروا باليهود وسلكوا طريقهم وساروا على منهجهم . وإن الإسلام برئ من هذا الإفك العظيم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

---

(١) سفر الخروج إصحاح ٣٤ فقرة ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٢) سفر العدد إصحاح ٢٢ فقرة من ٤ — ١٨ .

(٣) سفر العدد إصحاح ٢٢ فقرة من ٤ — ١٨ .

المبحث الخامس

صفة الإتيان والمجئ

بعد أن تحدثنا عن صفة النزول وأثبتنا نزوله سبحانه إلى سماء الدنيا كل ليلة على ما يليق بعظمته وجلاله رحمة لعباده يجيب دعوة الداعين ويعطى السائلين ، وقد ذكرنا أن صفة النزول لم يرد ذكرها فى القرآن العظيم وإنما ورد ذكرها فى السنة النبوية الصحيحة ، ثم ذكرنا آراء المخالفين فى ذلك ، وفندنا شبههم ونتبع الحديث عن صفة المجئ ، حيث قد ورد فى القرآن العظيم عدة آيات تخبرنا عن مجئ الله يوم القيامة ليفصل بين عباده وليحكم بينهم ومن تلك الآيات قوله تعالى { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا }[١] وقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }[٢] وقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ }[٣].

تلك هى بعض الآيات التى ثبتت مجئ الرب وإتيانه وهو موضع خلاف بين السلف والخلف والمشبهة .

مذهب السلف فى صفة المجئ :

أما مذهب السلف فهو السكوت عن مثل هذه الألفاظ وتفويض المعنى إلى مراد الله تعالى لأن الإتيان حقيقة هو الانتقال من حيز إلى حيز وذلك مستحيل بالنسبة إلى الله فطريقة السلف فى هذه الآيات إرجاع فهم معناها إلى علم المتكلم به وهو الله ، ويعتقدون أن الله عز وجل منزه عن صفات الحوادث وعلى ذلك نص أئمة السلف وعلماء السنة.

قال الكلبى هذه الآيات من المكتوم الذى لا يفسر وكان الزهرى والأوزاعى ومالك وابن المبارك ، وسفيان الثورى ، والليث بن سعد ، وإسحاق ، يقولون فى هذه الآيات وأمثالها ، أمروها كما جاءت ، قال سفيان بن عيينه : " كل ما وصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله وروى أبو صالح عن ابن عباس أن هذا من المكتوم الذى لا يفسر[٤] .

وكذلك يؤيد هذا الرأى المفسرون الذين ينهجون منهج السلف فقد قال شيخ المفسرون الإمام ابن جرير الطبرى فى تفسير قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ }[٥] إن معنى الآية هكذا : هل ينظر هؤلاء الذين يعدلون بربهم الأوثان والأصنام ويكفرون بلقاء الله وجزائه ، إلا أن تأتيهم الملائكة بالموت فتقبض أرواحهم ، أو أن يأتيهم ربك يا (محمد) يوم القيامة بين خلقه أو أن يأتيهم بعض آيات ربك من أظهرها طلوع الشمس من مغربها[٦] .

هذا هو قول شيخ المفسرين الإمام الطبرى مع التصرف فى العبارة ، ثم نقل الطبرى تفاسير بعض الصحابة والتابعين ثم سرد عدداً من الأحاديث المرفوعة تأييداً لتفسيره .

---

(١) سورة الفجر آية ٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٠ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٨ .

(٤) البحر المحيط – أبى حيان ج٢ ص ٦٥ .

(٥) سورة الأنعام آية ١٥٨ .

(٦) جامع البيان فى تفسير القرآن – ابن جرير الطبرى ج٨ ص ٩٦ ط بيروت .

وقد نقل الإمام الشوكانى فى تفسيره عند الآية المذكورة[١] تفاسير كبار المفسرين مثل مقاتل ، وابن مسعود وحديثاً عن أبى سعيد الخدرى[٢] فى تفسير الآية فى معنى مجئ الملائكة ومجئ الله تعالى ومجئ بعض آياته دون أدنى اختلاف إلا ما كان فى العبارة والأسلوب لأنهم يستقون جميعاً من معين واحد ، وهو (الوحى) الذى يستوحون منه مراد الله من كلامه سبحانه ، ثم يستوضحون ما أشكل عليهم من سنة نبيهم ، فلا يقولون على الله بغير علم ، تلك هو مذهب السلف . أما الخلف فهم قالوا بالتأويل .

مذهب الخلف فى صفة المجئ :

أما مذهب الخلف فى صفة الإتيان والمجئ فهم يرون لابد من التأويل على سبيل التفصيل لأن الإتيان هو حضور الذات فى موضع آخر سبق حصولها فيه وإسناد الإتيان فى هذه الآية لله تعالى على سبيل الإثبات يقتضى ظاهرة أتصاف الله به حتى يصح الإتيان ، وكان ذلك يستلزم الجسم ولا شك أن الله منزه عنه فتعين صرف اللفظ عن ظاهره بالدليل العقلى فإن كان الكلام الوارد فى الآية تهكما أو خبرا فلا حاجة إلى التأويل لأن اعتقادهم ذلك مرفوع بالأدلة وإن كان الكلام وعيدا من الله لزم التأويل لأن الله موجود فى نفس الأمر لكنه لا يتصف بما هو من صفات الحوادث كالتنقل والتعدد فلابد من تأويله كما هو مذهب الأشعرى فى المتشابه حيث يقول أبو الحسن الأشعرى فى هذه الصفة " يحدث الله يوم القيامة فعلا يسميه إتيانا ومجيئا ، لا بأن يتحرك أو ينتقل فإن الحركة والسكون والاستقرار من صفات الأجسام والله تعالى أحد صمد ليس كمثله شئ وهذا كقوله عز وجل { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ }[٣] ولم يرد به إتيانا من حيث النقلة إنما أراد أحداث الفعل الذى به ضرب بنيانهم ، وخر عليه السقف من فوقهم فسمى ذلك الفعل إتيانا[٤] .

وهذا هو مذهب الخلف فهم قد أولوا مجئ الله يوم القيامة بأنه فعل يسميه إتيانا ومجيئا ، ولكن ماذا يقولوا هؤلاء فى الآيات والأحاديث التى تثبت لقاء الله عز وجل يوم القيامة حيث ورد فى القرآن العظيم قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ }[٥] وقوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ }[٦] وقوله تعالى { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ }[٧] وقوله تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ }[٨] وهناك آيات كثيرة تنص على هذا المعنى . أما من السنة فهناك أحاديث كثيرة أثبتت رؤية الله تعالى يوم القيامة منها حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما فى الصحيحين ونصه " أن أناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا ، قال فأنكم ترونه كذلك "[٩] . ومنها حديث صهيب الرومى رضى الله عنه عند مسلم قال : قال سول الله صلى الله عليه وسلم " إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل هل تريدون شيئا أزيدكم ؟ يقولون :

---

(١) فتح القدير – الشوكانى ج٥ ص ١٧٢ ط : مصطفى البابى الحلبى .

(٢) يشهد لحديث أبى سعيد الموقوف حديث أبى هريرة المرفوع عند الشيخين وهو طلوع الشمي من مغربها ، بل كل الأدلة التى ذكرتها فى صفة النزول صالحة للاستدلال على هذه الصفة .

(٣) سورة النحل آية ٢٦

(٤) الأسماء والصفات – البيهقى ص ٥٦٤ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

(٦) سورة البقرة آية ٤٦ .

(٧) سورة الأحزاب آية ٤٤ .

(٨) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٩) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ج١٧ ص ١٩٥ – ١٩٦ ط : مصطفى الحلبى .

ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم "[1] فكل هذه الآيات والأحاديث تثبت لقاء الله عز وجل يوم القيامة ولا تدع مجالا للشك .

مذهب المشبهة فى صفة المجئ :

إن مذهب المشبهة يغاير مذهب السلف والخلف فمذهبهم خارج عن ملة الإسلام . فهم يصفون الله عز وجل بجميع صفات البشر ولا ينزهون الله سبحانه عن أى نقص ولا يصفونه بكل كمال يليق بذاته المقدسة . فهم قد جوزوا على ربهم الملامسة والمصافحة فى دار الدنيا . وأن المؤمنين منه يعانقونه ويعانقهم فى دار الدنيا وقد سبق الحديث مفصلا عن ذلك عند حديثنا عن صفة النزول وما قلناه فى صفة النزول ينطبق عليهم هو بعينه فى صفة المجئ .

---

(١) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح – ابن القيم ص ١٩٣ ط : المكتبة الإسلامية التجارية بمصر .

المبحث السادس

صفة المحبة

هذه الصفة تتحقق بين العبد الذى يحب ربه وسيده ومولاه ، وبين ربه الكريم عز وجل الذى أخبر أنه يحب عباده المتقين المحسنين ، ومحبة العبد لربه – كما يراها بعض المحققين[١] وكما هو الواقع – هى حقيقة (لا إله إلا الله) وهى تتفاوت فيما بين العباد ، فكلما يزداد العبد فى تحقيق لا إله إلا الله يزاد محبة الله ورغبة فى لقائه . فأكثر العباد محبة لله الأنبياء ثم الصالحون من أتباعهم ، لأن محبتهم لله هى التى حملتهم على تحمل المشاق والمصاعب وعلى تحمل كل ما لاقوه فى سبيل الدعوة إلى الله إلا محبته والإيمان به سبحانه وإصلاح شئون عباده .

فالخوف والخشية والتفانى فى طاعة الله ، وحسن عبادته وتحمل الأذى فى سبيل إظهار دينه وإعلاء كلمته ونصح عباده وتقديم الخير لهم كل أولئك ثمرات من ثمار محبة الله الصادقة التى لا تتم إلا إذا وصلت به تلك المحبة إلى درجة أنه من شدة محبته لربه ومن صحة محبته له ، يحب كل من يحبه والعمل الذى يحبه ، وكل خصلة أو صفة يعلم أن الله يحبها ومن الأدعية المأثورة : " اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك والعمل الذى يقربنا إلى حبك " ومحبة العبد لربه إذا صحت وتحققت فهى فوق كل محبة تقدر ، ولا نسبة لجميع المحاب لها . إذ هى الطاقة المحركة للعبد إلى فعل كل خير واجتناب كل شر ، بل كل تصرفات العبد فى تعامله مع الله وتعامله مع عباده نابعة من تلك الطاقة (المحبة) يتحرك العبد ويعمل ويعطى بتلك الطاقة لأن مقرها القلب الذى إذا صلح صلح كل شئ وإذا فسد فسد كل شئ ، فسد دينه ، وفسدت عقيدته ، وفقد محبة ربه ومولاه ، وإذا ما تعطلت تلك الطاقة وغيض نبعها ، هناك الهلاك ، والعبد فى هذه الحالة قد مات قلبه كليا وهو لا يدرى .

فهل صلاة العبد وحسنها والخشوع فيها إلا ثمرة من ثمرات محبته لربه سبحانه ورغبته فى قربه منه . وهل أنفق المنفقون من أموالهم وعصارة كدهم فى مرضاة ربهم إلا لمحبتهم لربهم أكثر من محبتهم لأموالهم . وهل صام عبد وحج وجاهد وتكبد المشاق فى سبيل ذلك إلا بدافع محبته لربه ورغبته فيما عنده سبحانه وبالاختصار لم يعبد الله عبد ، ولم يركع ، ولم يسجد ، إلا بدافع المحبة ، ولم يتكاسل ولم يعجز إلا لفقدان محبته لربه وتقديره لربه حق قدره أو نقصانها .

هذا هو مفهوم المحبة عند أهل السنة وعلماء الحديث الذين هم الناس الذين يقتدى بهم فى مثل هذا المجال .

وأما محبة الرب سبحانه لعباده من أنبيائه وأوليائه أهل طاعته ، فهى صفة عظيمة وحبيبة إلى قلوب عباده المحبين وهى صفة مستقلة قائمة بالله تعالى ، وهى فعل من أفعال الرب تعالى يؤهل لهذه المحبة من شاء لعباده ، ويخذل من شاء ولا يوفقه لينالها فرحمته وإحسانه وعطائه وإكرامه لمن شاء من عباده ثمرة من ثمرات محبته وثواب لها ، ومن موجباتها ، لأن الله تعالى لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وعطائه أوفر نصيب وأتمه .

وقد ورد ذكر المحبة فى القرآن العظيم فى كثير من الآيات نذكر منها قوله تعالى { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[٢] وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }[٣] وقوله تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

---

(١) انظر ابن قيم الجوزيه فى مدارج السالكين ، وبدائع الفوائد مبحث المحبة .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٥

(٣) سورة التوبة آية ٤

يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[١] وقوله تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }[٢] وقوله تعالى { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي }[٣] وكذلك ورد ذكر المحبة فى السنة النبوية نذكر منه قوله صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه أو كما يكره أن تؤتى معصيته "[٤] وقوله صلى الله عليه وسلم " اللهم أنك عفو تحب العفو فأعف عنى "[٥] وهو دعاء يدعى به الداعى فى ليلة يرجو أن تكون ليلة القدر كما ثبت ذلك فى حديث عاشة رضى الله عنها . وقوله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن فى الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يلقى فى النار "[٦] .

فى هذا الحديث الشريف إيضاح ما سبق أن أشرنا إليه من أن محبة الله ومحبة رسوله إذا صدقتا تكونان علامة واضحة على صدق الإيمان وبهما ينال المرء حلاوة الإيمان ويتذوقه حتى يصل إلى درجة الإحسان (فيعبد الله كأنه يراه ويشاهده) إيمانا ويقينا بأن الله معه ولا يفارقه ، وهو سبحانه يراه ويرى مكانه ويسمع كلامه ويعلم خلجات قلبه وحديث نفسه ، وهذا الموقف بل هذا الشعور يجعل العبد يستهين بكل شئ من ملاذ الدنيا وينسى متاعبها .

تلك هو مذهب السلف فى صفة المحبة فهى عندهم صفة فعليه من أفعال الله تعالى قائمة به ومتعلقه بمشيئته فهى من صفات الفعل الاختيارية فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة ، " فمذهب السلف قائم على إثبات المحبة صفة حقيقة لله عز وجل على ما يليق به فلا تقتضى عندهم نقصا ولا تشبيها كما يثبتون لازم تلك المحبة وهى إرادته سبحانه إكرام من يحبه وأثابته[٧] .

مذهب الخلف فى صفة المحبة :

أما مذهب الخلف فهو يختلف عن مذهب السلف فمذهب السلف يثبتون هذه الصفة لله عز وجل أما الخلف فهو لا يثبتون هذه الصفة لله بل ينفونها ويتأولونها على اختلاف بينهم فمذهب الأشاعرة والمعتزلة " ينفى صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصا ، إذا المحبة فى المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه . فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة ، فيقولون أن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته ، وكذلك يقولون فى صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عنده بمعنى إرادة الثواب والعقاب .

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناء على مذهبهم فى وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصى[٨] .

وأما الجهمية فقد نفوا تلك الصفة عن الله عز وجل " فأنهم يزعمون أن الله لا يحب ولا يحب ، هذا هو المبدأ عندهم . ويألون نصوص محبة العباد لربهم بمحبة طاعته وعبادته والازدياد من الأعمال الصالحة لينالوا الأجر والثواب .

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٤ .
(٢) سورة المائدة آية ٥٤.
(٣) سورة طه آية ٣٩ .
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٠٨) والبيهقى فى سننه عن عبد الله بن عمرو وصححه السيوطى – راجع فيض القدير (٢ / ٢٩٢) .
(٥) أخرجه أحمد (٦ / ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٨ ، ٢٥٨) والترمذى فى العدوات (٥ / ٥٣٤) وابن ماجه فى الدعاء ٢ / ١٢٦٥ وقال الترمذى حسن صحيح .
(٦) أخرجه البخارى فى الإيمان (١ / ١٦٠ ، ٧٢) والأدب (١٠ / ٤٦٣) وأخرجه مسلم (١ / ٦٢) وأخرجه أحمد (٣ / ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٧٢ ، ٢٣٠ ، ٢٧٥) .
(٧) شرح العقيدة الواسطية – شيخ الإسلام ابن تيميه ص ٥٦ ط : مكتبة التراث الإسلامى .
(٨) شرح العقيدة الواسطية ص ٥٣ .

وأما محبة الله لعباده فأولوها بالإحسان إليهم والتفضل بإعطاء الثواب على أعمالهم الصالحة أو بالثناء عليهم ونحو ذلك . وقد أولها بعضهم بإرادة الأنعام والإحسان .

وتتلخص تأويلاتهم للمحبة فيما يلى : يأولونها المفعول المنفصل كالعطاء والإحسان مثلا ، وأما الإرادة نفسها فيزعمون : أن الإرادة إن تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال العالية ، والمقامات المرضية سميت (محبة) وإن تعلقت بالعقوبة والانتقام سميت (غضبا) وهكذا إلى آخر تلك الأسماء التى سموا بها من عند أنفسهم فتصبح المحبة عندهم أحيانا صفة فعل ، وأحيانا صفة ذات ، وقد ترجع أكثر صفات إلى صفة واحدة وهى الإرادة كصفة الرحمة المحبة والتعجب والغضب والفرح . وليس لدى القوم مستند فيما ذهبوا إليه لا من الأدلة العقلية ، ولا من الأدلة النقلية ، بل لا تؤيدهم حتى الفطرة السليمة ، بل جميع طرق الأدلة عقلا ونقلا وفطرة حتى الذوق السليم ، وكلها تدل على إثبات محبة الرب لعبده ومحبة العبد لربه ، ولعل مثل هذا الموقف من الجهمية هو الذى جعل الإمام عبد الله بن المبارك[1] يقول قولته المعروفة : إننا نستطيع أن نحكى كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية "[2] .

تلك هو مذهب الخلف فهو لا يثبتون المحبة صفة لله عز وجل بل يأولون جميع النصوص الواردة فى صفة المحبة من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية . وذلك على حسب أهوائهم .

مذهب المشبهة فى صفة المحبة :

إن مذهب المشبهة فى صفة المحبة لا يختلف عن أقوالهم السابقة فهم يزعمون أن الله شبه الإنسان دم ولحم فهو لذلك يحب كما يحب العباد أى محبة الله هى كمحبة العباد بعضهم بعضا – تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا – ولذلك لا نخوض فى أقوالهم ومفترياتهم الكاذبة فهى كلها مستقاة من اليهود .

---

(١) عبد الله بن المبارك أو عبد الرحمن الحافظ شيخ الإسلام ولد سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م ، ومات يهيت " على الفرات " سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م انظر الأعلام للزركلى ج٤ ص ٥١ ، وانظر تذكرة الحافظ للذهبى ج١ ص ٢٥٣ .

(٢) الصفات الإلهية فى الكتاب والسنة د / محمد أمان بن على الحامى ص ٢٨٠ – ٢٨١ ط : دار الإيمان إسكندرية .

المبحث السابع

صفة الرحمة

هذه الصفة من الصفات التى اختلف فيها العلماء هل هى من صفات الذات أو من صفات الفعل ، والذى يترجح عن بعض أهل العلم أنها من صفات الأفعال لأنه سبحانه وتعالى يرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء فحيث تتعلق بها مشيئة الله وقدرته فهى من صفات الأفعال ويمكن عدها من صفات الذات باعتبار أن الله لم يزل متصفا بالرحمة ، فالرحمة العامة ملازمة لذاته تعالى وإن كان أفرادها تتجدد . وعلى كل حال فهى ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأئمة الذين هم خير الناس على الإطلاق . وقد جاء ذكر الرحمة فى القرآن الكريم بأساليب مختلفة نذكر منها الآتى :

قوله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }(١) ، وقوله تعالى { الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ }(٢) ، وقوله تعالى { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }(٣) ، وقوله تعالى { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ }(٤) ، وقوله تعالى { فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ }(٥) ، وقوله تعالى { إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }(٦) ، وقوله تعالى { وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }(٧) ، وقوله تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ }(٨) ، وقوله تعالى { لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }(٩) .

تلك هى بعض الآيات التى جاء فيها ذكر صفة الرحمة الله عز وجل وأيضا قد جاء ذكر الرحمة فى السنة النبوية نذكر منها :

قوله صلى الله عليه وسلم " إن الله كتب كتابا وهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى وفى رواية : سبقت غضبى "(١٠) ، وقوله صلى الله عليه وسلم " من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء"(١١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء "(١٢) .

هذه هى بعض الأحاديث التى ورد فيها ذكر صفة الرحمة ونكتفى بهذا القدر من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فكلها تثبت صفة الرحمة لله عز وجل .

---

(١) سورة طه آية ٥ .

(٢) سورة الرحمن آية ١ — ٢ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٢ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٣٣ .

(٥) سورة الأنعام آية ١٤٧ .

(٦) سورة الأعراف آية ٥٦ .

(٧) سورة الأعراف آية ١٥١ .

(٨) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

(٩) سورة الزمر آية ٥٣ .

(١٠) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ج١٧ ص ٦٩ شرح النووى .

(١١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢ / ٤٠٧) وقال المنذرى إسناده جيد (الترغيب والترهيب ٣ / ٢٠٢) .

(١٢) أخرجه أبو داود والترمذى راجع الذهبى فى العلو .

مذهب السلف فى صفة الرحمة :

أما مذهب السلف فى صفة الرحمة فهو كمذهبهم فى صفة الاستواء التى سبق الحديث فيها وأيضا كموقفهم فى صفة الفوقية والعلو وصفة المعية والقرب وما بعدها ، وما قيل هناك سيقال هنا فى هذه الصفة . وهو الوقوف عند فهم المعنى العام فقط دون تعمق أو تفلسف لمحاولة إدراك الكنة والكيفية ثم اللجوء إلى التأويل[١] عند العجز عند إدراك الحقيقة وهو أمر محتم وقد فاتهم (أن العجز عن الإدراك إدراك فى المطالب الإلهية) لأن إدراك كيفية صفات البارى فوق مستوى العلم البشرى { وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً }[٢] هذا هو موقف السلف فى معنى صفة الرحمة بكل إيجاز .

مذهب الخلف فى صفة الرحمة :

أما مذهب الخلف فى صفة الرحمة فلا يسعهم – عادة – إلا الخوض والتعمق والمناقشات . فقد قال الخلف باتفاق : إن " صفة الرحمة لا يجوز إثباتها على ظاهرها ، لأن الرحمة رقة فى القلب أو رقة تكون فى الراحم ، وهى ضعف وخور فى الطبيعة وتألم على المرحوم وهذه المعانى (نقص) وما كان كذلك مستحيل فى حقه تعالى فإثبات (الرحمة) إذا مستحيل . وإنما المراد لازمها أو إرادة لازمها "[٣] وهو إرادة " الخير " أو إرادة "الإحسان " ورد هذه الشبهة كالتالى :

إن ما ذكره النفاه (الخلف) من أن حقيقة الرحمة رقة فى القلب وهو ضعف وخور إلى آخر ما هنالك إنما هو من لوازم صفات المخلوق المعروفة لنا حقيقة ذاته ، وأما بالنسبة لصفات الله تعالى فهذه اللوازم غير لازمة لصفاته وقياس صفات الخالق على صفات المخلوق قياس فاسد ، وهو سر ضلال الجهمية . وقد ذكرنا فيما سبق أن الكلام فى الصفات فرع من الكلام فى الذات يحتذى حذوه ، فإذا كان غير الجائز قطعا قياس الخالق سبحانه على المخلوق فى ذاته تعالى ، فكذلك الأمر فى الصفات ، فغير جائز قياس صفاته على صفات المخلوقين .

مذهب المشبهة فى صفة الرحمة :

إن مذهب المشبهة فى صفة الرحمة هو لا يختلف عن منهجهم السابق فهم يزعمون أن الله مثل الإنسان فهو جسم كجسمه لحم ودم وتحل به جميع العوارض الحادثة وأنه محل للحوادث . وأن كل ما ينطبق على الإنسان من أعراض حادثة ينطبق على الإنسان لا فرق وكل ذلك من تأثير الفكر اليهودى الملعون . الذين قالوا إن الله بكى على خراب بيت المقدس وقد ذكروا هذا على لسان لعين منهم يدعونه إسماعيل وكلامه عنده والوحى سيان قال : كنت أمشى ذات يوم فى خراب بيت المقدس ، فوجدت الله تعالى يبكى ويئن كما تئن الحمامة ، وهو يقول هدمت بيتى ، ويلى على ما فرقت من بنى وبناتى ، قامتى منكسة حتى أبنى بيتى ، وأرد بناتنى وبنى ، قال ثم قيض الله على ثيابى " وقال سمعتنى يا أبنى يا إسماعيل قلت لا يا رب ، فقال لى لا أتركك حتى تبارك على فباركت عليه وتركنى "[٤] .

هذا هو مذهب المشبهة فى صفة الرحمة وهو لا يختلف عن مذهبه فى جميع الصفات الخبرية سواء الفعلية أو الذاتية .

---

(١) قد لجأ أشد الناس تمسكا برأى السف – رضوان الله عليهم – إلى التأويل وهو الإمام أحمد بن حنبل فى عدة مواطن منها تأويله حديث " الحجر الأسود يمين الله فى الأرض " وحديث " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن " وغير ذلك . انظر كتاب العقائد – حسن البنا ص ٧٦ ، ٧٧ ط : دار الدعوة بالإسكندرية .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٣) الرسائل المسائل – ابن تيميه ص ٣٩ بتصرف تحقيق رشيد رضا .

(٤) الرد على ابن النغريلة اليهودى – ابن حزم الأندلسى ص ٧٤ ط : دار العروبة " وما بين القوسين داخل النص هو من كتاب الفصل – ابن حزم ج١ ص ٣٢٦ .

الخاتمة

إنه بعد عرض مذاهب السلف والخلف والمشبهة فى الصفات الخبرية الفعلية المتعلقة بالله عز وجل يتبين أن مذهب السلف هو أصح المذاهب لأنه يقوم على الإيمان بتلك الصفات دون تحريف للنصوص باسم التأويل ، ودون تشبيه لصفاته – عز وجل – بصفات خلقه .

وأنه يجب إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله { أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ }(١) كما لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله الذى قال الله تعالى فيه { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى }(٢) .

كذلك يجب تنزيه الله عز وجل عن مشابهة الحوادث فى صفاته كما قال عز وجل { ليس كمثله شئ وهو السميع البصير }(٣) ويجب عدم محاولة إدراك حقيقة صفاته كما لا تدرك حقيقة ذاته .

لأن معرفة حقيقة الصفة وكيفيتها تابعة لمعرفة حقيقة الموصوف وكيفيته فإذا كان إيمان العباد بالله إيمان إثبات وتسليم دون محاولة لمعرفة حقيقة ذاته سبحانه فيلزم أن يكون إيمانهم بصفاته كذلك إيمان إثبات وتسليم لله ولرسوله ولا يسلم إيمان المرء إلا بهذا التسليم وحده ، ذلك لأن الكلام فى الصفات فرع من الكلام فى الذات يحذو حذوة .

لذلك يرى أهل السلف أنه يجب أن تبقى هذه النصوص على ظاهرها ، ولا يفهم منها إلا ظاهرها اللائق بها ، بل لا يجوز أن يعتقد أن النصوص تدل بظاهرها على ما لا يليق بالله لما فى ذلك من اساءه أدب ، بل اساءة الظن بالله الذى أنزل تلك النصوص وأوحى بها إلى رسوله الأمين ﷺ .

وهذا المذهب هو وسط بين مذهب العطلة والمشبهة .

أما مذهب الخلف فهم يرون إخراج النصوص عن ظاهرها إلى معنى آخر بدعوى التنزيه وهذا يؤدى إلى تعطيل تلك الصفات .

أما مذهب المشبهة فهو مذهب خارج عن ملة الإسلام فهذا المذهب مقتبس من اليهود الذين شبهوا الله عز وجل بخلقه .

وقصارى القول أن مذهب السلف هو أصح المذاهب ؛ لأنهم يرون أنه يجب الإيمان بتلك الصفات على ظاهرها دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل أو تكليف ، وأن تلاوة هذه الآيات هو تفسيرها ، وإن السلف حين بحثوا فى صفات الله تعالى كان معتقدهم على أسس ثلاثة :

الأول تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات فى جميع صفاته فكلما أن ذاته لا تشابه ذوات المخلوقين فكذلك صفاته وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى " ليس كمثله شئ ".

الثانى : إثبات جميع الصفات الواردة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وإلى هذا الإشارة يقول تعالى " هو السميع البصير " .

الثالث : اليأس وقطع الطمع فى إدراك كيفية صفاته الله تعالى فكما أنه لا يطمع أحد من المخلوقيين فى معرفة كيفية الذات فكذلك الصفات لأن الكلام فى الصفات كالكلام فى الذات وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى " ولا يحيطون به علماً " .

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٠ .

(٢) سورة النجم آية ٣ ، ٤ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

وأما رأى الخلف " وهم الاشاعرة والمعتزلة وغيرهم من علماء الكلام " فإن الأشاعرة المتقدمون كأبى الحسن الأشعرى وأبى بكر الباقلانى وغيرهما كانوا يثبتون تلك الصفات الخبرية ويتحرجون من تأويلها بما يقتضى نفيها عن الله عز وجل .

وإن أول من أشتهر عنه نفى هذه الصفات وتأويلها من الاشاعرة هو إمام الحرمين الجوينى وتبعه على ذلك جميع متأخرى الأشاعرة تقريباً مثل الغزالى والرازى والأمدى وغيرهم.

وكانت حجتهم فى التأويل أن إثبات هذه الصفات يلزم عنه إثبات الجهة ، والجهة منفيه عن الله تعالى فيجب صرف هذه النصوص عن ظاهرها لأن ظاهرها يوهم التشبيه .

وإن ظاهرها غير مراد الله تعالى بل مراد الله منها شئ أخر غير ظواهرها وبناء على هذا يجب الخوض فى صرفها عن ظاهرها وتأويلها " ، وكان هدف الأشاعرة من التأويل هو تنزيه البارى جل شانه .

ولكن قد رجع كثير من كبار الاشاعرة عن التاويل وسلكوا منهج السلف ومن ذلك إمام الحرمين أوب المعالى الجوينى ففى كتابه الإرشاد أجاز التأويل ولكنه فى كتابه الرسالة النظامية رجع عن ذلك وحرم التأويل ويبين إجماع السلف على تحريمه .

وكذلك الإمام الغزالى رجع عن التأويل إلى مذهب السلف حيث قال كتابه إلجام العوام عن علم الكلام " حقيقة مذهب السلف هو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور ، التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الإمساك ثم الكف ثم التسليم .

وأما الرازى فكلامه فى تلك المسألة مضرب بين التأويل وعدمه فنراه فى بعض كتبه مثل المحصل ومعالم أصول الدين وغيرهما يرى أن الواجب هو التوقف فى أمر هذه الصفات دون إثبات أو نفى ، بينما هو فى أساس التقديس يجنح إلى التأويل ويتوسع فيه إلى أبعد الحدود .

وأما المعتزلة فهم من نفاة الصفات .

وأما رأى المشبهه فهو مذهب خارج عن ملة الإسلام وتابع لمذهب اليهود فى التشبيه والتجسيم .

والذى نخلص إليه هو يجب إتباع مذهب السلف وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم أو وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن الكريم والحديث .

فمذهب السلف حق بين باطلين بين بطل وهو التمثيل وباطل التعطيل فالمشبه بعبد صنما والمعطل يعبد عدما والموحد يعبد رب الأرض والسماء .

د / أحمد مصطفى على
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

المصادر والمراجع

١ـ القرآن العظيم .
٢ـ الأسماء والصفات للبيهقى ط دار الكتب العلمية بيروت .
٣ـ الاقتصاد فى الاعتقاد ـ الغزالى ـ ط مصطفى الحلبى .
٤ـ الإبانة عن أصول الديانة للأشعرى ط بيروت دار بن زيدون .
٥ـ الأصول الخمسة ـ القاضى عبد الجبار .
٦ـ اعتقادات مذاهب أهل السنة .
٧ـ الأربعين فى أصول الدين ـ الرازى تقديم عبد الرءوف ط الكليات الأزهرية .
٨ـ أصول العقيدة الإسلامية ـ أبو جعفر أحمد بن سلامة الأزدى الطحاوى الوفا طبعة أولى .
٩ـ ابن تيمية السلفى ـ محمد خليل هراس ط مكتبة الصحابة .
١٠ـ بغية المراد فى رسائل التوحيد للغزالى ط المحمودية .
١١ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ط بيروت .
١٢ـ تقريب التدمرية ـ الشيخ محمد بن صالح العتيمين ط مكتبة السنة .
١٣ـ التعريفات للجرجانى ط بيروت .
١٤ـ التجسيم عند المسلمين د / سهير محمد مختار ط الإسكندرية .
١٥ـ تأسيس التقديس ـ الرازى .
١٦ـ التمهيد والرد على الملاحدة ـ الباقلانى ط دار الفكر العربى .
١٧ـ التبصير فى الدين ـ الاسفرايني مطبعة الأنوار ،
١٨ـ التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد لابن عبد البر ط وزارة الأوقاف بالمغرب .
١٩ـ تاريخ الفرق الإسلامية د / محمود أبو زرعة ط دار المنار .
٢٠ـ تلبس إبليس ـ ابن الجوزى البغدادى ط دار إحياء الكتب العربية .
٢١ـ التمهيد والرد على أهل الأهواء والبدع ـ الملطى ط بيروت .
٢٢ـ الجواهر الكلامية ـ طاهر الجزائرى ط عالم الكتب بيروت .
٢٣ـ الجانب الإلهى من التفكير الفلسفى د / محمد البهى ط مكتبة وهبة .
٢٤ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ـ ابن جرير الطبى ط بيروت .
٢٥ـ حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ـ ابن القيم ط المكتبة الإسلامية التجارية
٢٦ـ حلية الأولياء ـ أبو نعيم الأصفهانى ط بيروت .
٢٧ـ رسائل فى العقيدة ـ محمد صالح العتيمين ط الرياض .
٢٨ـ الرد على الجهمية والزنادقة ـ أحمد بن حنبل ـ ط دار اللواء الرياض .
٢٩ـ الرد على ابن النغريلة اليهودى ـ ابن حزم الأندلسى ط دار العروبة .
٣٠ـ شرح المواقف للإيجى ط دار السعادة بمصر .
٣١ـ شرح العقائد النسفية ـ سعد الدين التفتازانى مصطفى الحلبى .
٣٢ـ شرح العقيدة الطحاوية — ابو جعفر أحمد بن محمد الطحاوى — ط دار الفكر .
٣٢ـ شرح العقيدة الواسطية– شيخ الإسلام بن تيمية – تأليف محمد خليل — ط .

٣٣ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ابن قيم الجوزيه الصفات الإلهية فى الكتاب والسنة ـ محمد أمان بن على الجامى ط دار الإيمان الإسكندرية .
٣٤ـ صحيح مسلم ط دار السلفية .
٣٥ـ العهد القديم كتاب اليهود والنصارى .
٣٦ـ غلاة الشيعة د / فتحى محمد الزغبى ط دار المعارف .
٣٧ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ط مصطفى الحلبى .
٣٨ـ فتح القدير ـ الشوكانى ط مصطفى البابى الحلبى .
٣٩ـ الفقه الأكبر ـ أبى حنيفة ط دار الحلبى .
٤٠ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـ ابن حزم ط عكاظ .
٤١ـ الفرقان بين الحق والباطل ـ ابن تيمية مطبعة الإمام بمصر .
٤٢ـ الفرق بين الفرق ـ البغدادى ـ ط ابن سينا .
٤٣ـ فيض القدير ـ الذهبى ط بيروت .
٤٤ـ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب جلا وعلا محمد بن إسحاق حزيمة .
٤٥ـ لسان العرب ابن منظور ط دار المعارف .
٤٦ـ مختار الصحاح ط دار القلم .
٤٧ـ المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ط دار أوفست .
٤٨ـ الملل والنحل الشهرستانى ط دار صعب بيروت .
٤٩ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل .
٥٠ـ مفاتيح الغيب ـ الرازى المطبعة الخبرية .
٥١ـ محاضرات فى التوحيد والعقيدة والفكر الحديث د / محمد شمس الدين ط دار الأنوار .
٥٢ـ مقالات الإسلامية أبو الحسن الأشعرى ط مكتبة النهضة الشاملة .
٥٣ـ مدارج السالكين ابن قيم الجوزيه ط الصبان بمصر .
٥٤ـ المعجم الفلسفى ـ جميل صليبا ط دار الكتاب اللبنانى بيروت .
٥٥ـ نشأة الفكر الفلسفى د / على سامى النشار ط بيروت .
٥٦ـ نهاية الأقدام فى علم الكلام ـ الشهرستانى .
٥٧ـ مجموع الفتاوى ابن تيمية ط دار الرياض .
٥٨ـ وفيات الأعيان ـ ابن خلكان تحقيق محمد محى الدين ط مكتبة النهضة بمصر .